الفيلسوف الأفلاطوني المادوري

لوكيوس آبوليوس

ترجمة وتعليق : أكرم بوعشة

فلوريدا

FLORIDA



دار سيفار للنشر والطباعة والتوزيع



للنشر والطباعة والتوزيع

الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-9969-5030-9-8

الإيداع القانوني: أكتوبر 2023

صنف العمل: ترجمة وتعليق

العنوان: فلوريدا

المؤلف: أكرم بوعشة

البلد: الجزائر

السعر: 1200دج

سيفار للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

شارع بن عميمور عبد القادر - حي لاكولون - عنابة

sifar.edition@gmail.com

0674168924 - 0671542763

إهداء

هذه الترجمة هديّة أبديّة إلى ياسمين، زهرة الأزاهير!!!

تصدير

جاء في الصفحة 41 من كتاب أبولوجيا للوكيوس أبوليوس قوله: "أما عن مسقط رأسي فهو يقع على تخوم نوميديا وجيتوليا، ولك أن تتحرى ذلك من كتاباتي، لأني صرحت بأني "نصف نوميدي، نصف جيتولي"، في خطاب ألقيته بنفسي أمام الملأ وعلى شرف الموقر لوليانوس أفيتوس. فأنا لا أرى حرجا في الأمر... ولا أقول هذا بدافع الخجل من وطني، فقد كنا بلدة من عهد سيفاكس، وبانهزامه انتقلنا بتزكية الشعب الروماني لسيادة الملك ماسينيسا.

هذا ما يقوله أبوليوس عن مسقط رأسه بوضوح وباعتزاز، فهو من مواليد مادورا (مداوروش) بسوق أهراس بالشرق الجزائري في عام 124 ميلادية. كان أبوه مسؤولا على إدارة المنطقة التابعة لسلطة الرومان بعد احتلالهم لمناطق واسعة في الشمال الإفريقي، درس في البداية في مسقط رأسه مادورا، ثم واصل دراسته في قرطاج أولا، وأثينا فيما بعد، وكان كثير الأسفار، ولم ينقطع عن وطنه حتى وفاته، مخلّفا عدة مؤلفات في مختلف مجالات المعرفة، ولكن لم يصلنا منها إلا القليل، وقد ذكر أبو العيد دودو في المقدمة التي استهل بها ترجمته لرواية "الحمار الذهبي"، المؤلفات الستة لأبوليوس التي وصلتنا، وهي: أبولوجيا، فلوريدا، عن إله سقراط، عن أفلاطون وتعاليمه، عن العالم، ورواية الحمار الذهبي.

وزيادة إلى هذه المؤلفات الستة التي ذكرها أبو العيد دودو في المقدمة الطويلة والمهمة التي وضعها لترجمته لرواية الحمار الذهبي، فقد تناول فيها أيضا جوانب أخرى كثيرة، منها عرضه لجوانب مهمة من حياة المؤلف، وتقديم ملخص للرواية، ووضع ملخص مطول لإحدى القصص الفرعية المتميزة التي وردت في الرواية، وهي قصة "بسيشية وآمور"؛ ومن ثمة جاءت هذه المقدمة غنية بالمعلومات، وتعكس جهدا كبيرا ومضاعفا بذله المرحوم أبو العيد دودو مع هذا العمل، إذ لم يكتف بالترجمة فقط، وإنما أضاف له هذه المقدمة الغنية بالمعلومات حول حياة المؤلف، وحول الرواية نفسها.

ونود أن نتوقف قليلا عند هذه المقدمة في جانبها المتعلق بحياة المؤلف، حيث بدا لنا حديث أبي العيد دودو عن حياة أبوليوس حديثا يعكس موقفا يتّصف بكثير من البرودة والحيادية أمام المعلومات المتضاربة والمتناقضة التي أوردها فيها، فهو لم يتدخل لمناقشة تلك المعلومات، وترجيحها أو تصحيحها وفق ما يتطلبه البحث العلمي من جهة، وكما يستوجبه الانتماء للوطن الواحد والتاريخ الواحد من جهة ثانية.

لقد بدا لنا أبو العيد دودو وكأنه لا يرى في كون الروائي أبوليوس، صاحب أول رواية في تاريخ البشرية، أيّ شيء إضافي للشخصية الجزائرية العريقة ولثقافتها المتنوعة والغنية، وهذا ما نراه في قوله: "يعدّ أبوليوس واحدا من الأفارقة، أو من أبناء شمال إفريقيا كما نقول اليوم، الذين برزوا في الأدب اللاتيني مثل فرونتو، وتيرتوليان، وفيليكس، وأغوستينوس؛ وليس في هذه الأسماء، إذا نحن قرأناها بمعزل عن المدن، التي ينسبون إليها أحيانا، ما يدلّ على إفريقيتها أو نوميديتها إطلاقا! ومن ثَم اعتُبر أبوليوس بحق ممثل اللاتينية الإفريقية" ص. 9. ثم يضيف عن تاريخ ميلاده ومكانه قائلا: "ولد لوكيوس أبوليوس عام 124 أو 125 بعد الميلاد في مدينة مادورا التي يطلق عليها اليوم اسم مداوروش، وكان موقعها على الحدود بين جيتوليا، نسبة إلى قبيلة جدالة، ونوميديا. وقد وصفها هو نفسه بأنها مستعمرة مزدهرة، وكان يفخر بالانتماء إليها، فهو يسمي نفسه في مخطوطاته، أبوليوس المادوري الأفلاطوني حينا، والفيلسوف الأفلاطوني حينا آخر". ص10.

وبعد هذا بصفحات، ينقل عن فيكتور بيتولو Victor Betolaud مترجم الرواية إلى اللغة الفرنسية كلاما يتوافق تماما مع رؤيته السابقة عن حياة أبوليوس ورومانيته، هو وكتاباته بشكل عام وكامل، مع ذكر علاقته القوية أيضا بالثقافة اليونانية، فيقول: "ويؤكد بيتولو أنّ أبوليوس في واقع الأمر رجل روماني من حيث اللغة التي استعملها في التعبير عن أفكاره، وهو روماني من حيث المدينة، إذ ولد في مدينة رومانية وتعلم في مدينة رومانية، وهو روماني من حيث علاقاته وصداقاته، ومن

حيث تبعيته لمن كانوا يحكمون البلاد من الرومان، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنه روماني أيضا من حيث انتماؤه إلى إمبراطوريته الرومانية في الرواية نفسها. لكن دراساته تربطه من جانب آخر باليونان، إذ ألّف عدة كتب باليونانية التي كان يستعملها كما يستعمل اللغة اللاتينية، فكان يقلّد أو يترجم الأدب اليوناني في معظم كتبه على عادة معظم من سبقه من الكتاب الرومان". ص. 40 . 41.

فإذا تأملنا بعض ما جاء في قوله السابق: "يعد أبوليوس واحدا من الأفارقة، أو من أبناء شمال إفريقيا كما نقول اليوم"، نرى أبا العيد دودو حريصا على ترك مسافة واضحة بينه وبين المؤلف، فلا ينسبه إلى وطن يشتركان فيه ماضيا وحاضرا هو الجزائر، وإنما يكتفي بنسبه إلى فضاء جغرافي عام وشاسع هو فضاء القارة الإفريقية أولا، ثم فضاء شمال إفريقيا، الذي يشمل في الوقت الحالي أربع بلدان على الأقل ثانيا. فغياب هذا التخصيص يفصح عن عدم اعتزازه بتقاسم الانتماء إلى الوطن الواحد بينه وبين الروائي، وهو الكاتب الذي ملأ الدنيا بفكره وعلمه وخطبه ومؤلفاته قديما وحديثا، كما يدل على ذلك ما لقيته روايته الحمار الذهبي في كامل أوروبا من اهتمامات متنوعة من الأدباء والفنانين، قاصّين وروائيين وشعراء ومسرحيين ورسامين ونحاتين وموسيقيين، كما يذكر أبو العيد دودو نفسه ذلك في حديثه الذي خصصه لأهمية قصة بسيشية الفرعية التي وردت في الحمار الذهبي (الصفحات 36 . 37 . 38).

إن غياب أيّ اعتزاز لأبي العيد دودو بأبوليوس من هذه المقدمة، قد جعلها تعكس عدم الشعور بتشاركه الانتماء إلى الوطن الواحد بينه وبين أبوليوس، وقد تجسد جانب من ذلك في المقطع السابق على لسان أبي العيد دودو، وقد ازداد وضوحا وتأكيدا في قوله الذي أورده بعده معلقا على طبيعة أسماء هؤلاء الأدباء والمفكرين الأربعة الذين ذكرهم إلى جانب أبوليوس، وقد جاء فيه: "وليس في هذه الأسماء، إذا نحن قرأناها بمعزل عن المدن، التي ينسبون إليها أحيانا، ما يدل على إفريقيتها أو نوميديتها إطلاقا! ومن ثمّ اعتبر أبوليوس بحق ممثل اللاتينية الإفريقية"، وهو حكم

نهائي وصارم: "اطلاقا!"، ولا يستند إلى أيّ دليل وجيه، إلا على أسماء هؤلاء، التي رأى أنها ليست أسماء إفريقية ولا نوميدية. فهو يختصر الإنسان بكامله في اسمه، ولا نعلم ما هي الأسماء الإفريقية عامة والنوميدية خاصة، التي لا يمكن أن يكون هؤلاء بدونها منتمين لهذه الأرض التي أنجبتهم، ولمدنها التي حضنتهم، وهذا برغم أن أبوليوس، كما مرّ بنا أعلاه، يعتز بكونه ابن هذه الأرض، مادورا ونوميديا وجيتوليا، وأنه لا يرى أي انتقاص من شخصيته ومن منزلته بسبب هذا الانتماء، كما لا يرى أي فضل لغيره الذي ينتمي إلى أرض غير نوميديا، أو قومية غير القومية الشمال إفريقية.

وبعد أن أخرج أبو العيد دودو أبوليوس من فضائه الطبيعي والقومي والحضاري، راح يبحث له مكان يضعه فيه حتى يقيم بينهما فاصلا ماديا نهائيا يحدد انتماء كل واحد منهما إلى فضاء مختلف عن فضاء الآخر حضاريا وثقافيا، فيقول: "ومن ثم اعتبر أبوليوس بحق ممثل اللاتينية الإفريقية"، فهو هنا يتجاهل أن أساس الانتماء يحدده الفضاء الجغرافي أولا وأخيرا، وتبقى العناصر الأخرى، التي بنى عليها أبو العيد حكمه، هي عناصر ثانوية مكملة لا غير؛ وبناء عليه، فأبو العيد دودو وأبوليوس ينتميان إلى فضاء جغرافي واحد هو الشمال الإفريقي، وإلى وطن واحد هو الجزائر، وإلى امتداد حضاري غني واحد يمتد عميقا إلى فجر التاريخ.

إن أبا العيد دودو ما كان ليقع فيما وقع فيه لو أنه لم يقع تحت تأثير آراء فكتور بيتولو مترجم رواية الحمار الذهبي إلى الفرنسية، الذي عرف بطريقة ذكية غير مباشرة كيف "يسرق" منا أبوليوس وينسبه إلى حضارة الرومان مباشرة، ومن ثمّ ينسبه ضمنيا إلى فرنسا، كونها من وارثي الحضارة الرومانية واليونانية.

ينقل أبو العيد دودو المبررات التي أقام عليها بيتولو تحديده لانتماء أبوليوس إلى الرومان، فيقول: "ويؤكد بيتولو أن أبوليوس في واقع الأمر رجل روماني من حيث اللغة التي استعملها في التعبير عن أفكاره، وهو روماني من حيث المدينة، إذ ولد في

مدينة رومانية وتعلم في مدينة رومانية، وهو روماني من حيث علاقاته وصداقاته، ومن حيث تبعيته لمن كانوا يحكمون البلاد من الرومان، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنه روماني أيضا من حيث انتماؤه إلى إمبراطوريته الرومانية في الرواية نفسها. لكن دراساته تربطه من جانب آخر باليونان، إذ ألّف عدة كتب باليونانية التي كان يستعملها كما يستعمل اللغة اللاتينية، فكان يقلد أو يترجم الأدب اليوناني في معظم كتبه على عادة معظم من سبقه من الكتاب الرومان". ص. 40 . 41.

يقيم بيتولو تحديده لنسب أبوليوس إلى الجنسية الرومانية على مجموعة من العناصر نحصرها كالاتي: استعماله للغة الرومانية، ولد في مدينة رومانية ودرس فيها، علاقاته وصداقاته للرومانيين، تبعيته لمن كانوا يحكمون البلاد من الرومان، انتماؤه إلى الإمبراطورية الرومانية في الرواية، يقلد أو يترجم من الأدب اليوناني كما يفعل غيره من الكتاب الرومان. فكونه ولد في مدينة استعمرتها روما، ودرس بها، وألف بها، وكانت له فيها علاقات وصداقات بالرومانيين، وكان بحكم هذا الاستعمار تابعا كغيره من أبناء وطنه للإمبراطورية الرومانية، هي عوامل ظرفية طارئة لا تجعل منه مواطنا رومانيا أبدا، لكونه هو نفسه حرص على تحديد انتمائه إلى مادورا وأهلها النوميديين والجيتول، بالرغم من النظرة الدونية التي يلمسها عند بعض المنسلخين والانهزاميين من أبناء وطنه لهذا الانتماء: "أما عن مسقط رأسي فهو يقع على تخوم نوميديا وجيتوليا، ولك أن تتحرى ذلك من كتاباتي لأني صرحت بأني 'نصف نوميدي، نصف جيتولي' في خطاب ألقيته بنفسي أمام الملأ ... فأنا لا أرى حرجا في الأمر... ولا أقول هذا بدافع الخجل من وطني، فقد كنا بلدة من عهد سيفاكس، وبانهزامه انتقلنا بتزكية الشعب الروماني لسيادة الملك ماسينيسا".

فهو كما يصرح بوضوح أمام الملأ لا يخجل أبدا من وطنه برغم انهزامه أمام الرومان، بل هو يعتز بتاريخ بلاده وبملوكها، ولا يتردد من ذكرهم بالاسم: سيفاكس وماسينيسا. أما كونه يقلد أو يترجم من الأدب اليوناني في كتاباته باللغة اللاتينية، فهذا أمر يجعله هو وهؤلاء الرومانيين وغيرهم ممن يعجبون بالأدب اليوناني أقرب

إلى المواطنة اليونانية وليس الرومانية كما ينحاز بيتولو وينحاز معه أبو العيد دودو، وهو ما لم يرض به أبوليوس، فقام بنفسه بالفصل في انتمائه إلى وطنه العزيز "نوميديا/مادورا".

يعدّ كتاب فلوريدا ثالث كتاب للوكيوس أبوليوس، من بين أعماله، يتم ترجمته إلى اللغة العربية، في انتظار ترجمته، وترجمة غيره من أعمال أبوليوس، إلى اللغة الأمازيغية، وهما اللغتان الوطنيتان والرسميتان في وطننا الجزائر.

فقد قام أبو العيد دودو بترجمة رواية الحمار الذهبي، التي كتبها أبوليوس باللغة اللاتينية، ونشرتها دار الاختلاف في الجزائر في عام 2001، وكان علي فهمي خشيم قد قام بترجمتها من قبل تحت عنوان "تحولات الجحش الذهبي"، ونشرها بطرابلس عام 1980، وهي ترجمة لا تخلو من إعادة الصياغة والحذف والتصرف حسب ما ذكر المترجم نفسه في مقدمة الترجمة، حسب ما نقل أبو العيد دودو ذلك في مقدمته للرواية، وقد يكون ذلك هو سبب إقدامه على إعادة ترجمتها، وإعطائها عنوان "الحمار الذهبي"، وهو أحد العناوين التي عرفت به منذ القديم، وهذا بعد إعجاب المترجم الشديد بها، كما يتضح من قوله: "وصلت الرواية إلينا دون أن تفقد شيئا من ذهبيّتها، وكأنها قد كتبت لعصرنا، أو لعصر لا نهاية له مدى الدهر، وهذا هو شأن الكتب العظيمة". ص 22.

أما الكتاب الثاني الذي تمت ترجمته إلى العربية فهو كتاب الدفاع Apologia الذي قام بترجمته إلى العربية الأستاذ أكرم بوعشة، وهو جزء من كتاب باللغة الإنجليزية للأستاذ البريطاني هارولد بوتلر صدر في عام 1909، بعنوان "أبولوجيا وفلوريدا لأبوليوس المادوري" The Apologia and Florida of Apuleius of Madaura. فالكتاب في نسخته الإنجليزية يتضمن أيضا إلى جانب "الدفاع" جملة من نصوص أبوليوس، ووضعت تحت عنوان فلوريدا. وموضوع كتاب أبولوجيا، هو نص المرافعة الذي استعرضه أبوليوس في المحكمة ليدافع به عن نفسه ضد التهم التي ألصقها به أهل

زوجته، وكانت أخطرها تهمة استعماله السحر ضد بودونتيلا لتقبل به زوجا لها، وكانت عقوبة هذه التهمة، في حال ثبوتها، هي الإعدام في القانون الروماني. وقد جرت هذه المحاكمة في مدينة صبراتة، وبرّأته المحكمة منها.

فلوريدا Florida هو الكتاب الثاني الذي قام الأستاذ أكرم بوعشة بترجمته إلى اللغة العربية، بعد أن ترجم كتاب الدفاع، وهما كتابان تضمّنهما كتاب هارولد بوتلر المذكور أعلاه. وما كان الأستاذ أكرم بوعشة ليقدم على ترجمة هذا الكتاب الثاني لولا النجاح الكبير الذي لقيته ترجمته الأولى لكتاب الدفاع، وكذا الترحيب المتميّز الذي استقبل به الكتاب مترجما إلى اللغة العربية، وكنت من بين المعجبين جدا بتلك الترجمة المرحبين بها، مقدما واجب الثناء الكبير والعرفان الجميل، الذين يستحقهما الأستاذ الفاضل على غيرته العميقة على تراث بلاده، وعلى جهده العظيم الذي مكننا من قراءة هذا العمل بكل أريحية، بعد أن تمّ نقله إلى العربية بلغة راقية وأسلوب محكّم جميل، جعلنا نقرأه وكأننا أمام نص كُتب أصلا بهذه اللغة التي اتسعت لكل تفاصيله وجزئياته الخارجية وعوالمه الداخلية أسلوبا ودلالات.

وها هو المترجم الكريم يضع بين أيدينا جميعا ترجمة أنيقة شيقة لكتاب فلوريدا، فهنيئا له كمترجم بارع، وهنيئا لنا نحن القراء المتشوقون لاكتشاف فكر أحد كبار الكتاب والمثقفين والفلاسفة والأدباء الذين أنجبتهم بلادنا العزيزة الجزائر، فساهمت بفضل جهود أبنائها في إثراء الفكر البشري والحضارة الإنسانية التي نحن جزء منها.

كتاب فلوريدا هو كتاب أدب وفكر، يتضمن ستة وعشرين نصا، تتناول موضوعات مختلفة، موضوعات تَقرأ في كتاب الطبيعة الحية الواحدة، الإنسان، والحيوان، والآلهة. هذه الأطراف الثلاثة تلتقي في الكتاب لتصنع الحياة الواحدة المترابطة والمنسجمة، إنها حياة الإنسان الذي يسعى إلى فهم نفسه، لإسعاد حياته، مستعينا على ذلك بالقدرة على استخلاص الدروس التي تمده بها أحداث الطبيعة، تحت

عيون الآلهة المتابعة لكل حركة، والمراقبة لكل شيء، والقادرة على تصحيح أي انحراف، وردع أي غرور يجر النجاحُ إليه الإنسانَ.

يتضمن كتاب فلوريدا ستة وعشرين نصا، متفاوتة من حيث الطول، ومختلفة من حيث طبيعتها أو جنسها، ومتنوعة من حيث موضوعاتها، تنوُع يصل بين موضوعاتِ مجموعةٍ منها خيطٌ يصنع وحدتَها الداخلية، فهي تشترك جميعا بكونها بليغة النسج، ومحكمة التعبير، راقية الأسلوب، وعميقة المضمون.

فمن حيث الطول، فهي تتراوح ما بين ستة أسطر، كما هو الأمر مع النص الخامس: "شذرة من فاتحة خطاب ألقي في المسرح"، إلى تسع صفحات، كما هو الشأن مع النص الثامن عشر: "خطاب ألقي إلى القرطاجيين، أتى فيه على ذكر طاليس وبروتاغوراس بالصدفة".

ومن حيث جنسها، فهي خطب ومحاضرات تعليمية أو مدحية ألقاها على القرطاجيين، أو على حكامها، أو كتبها في ظروف مختلفة يسجل فيها بعض ما يرده من أفكار حول مسائل الحياة المختلفة. وقد أظهر في جميعها براعة خطابية نادرة، ورؤية فكرية عميقة، وثقافة متنوعة، واسعة وشاملة، مع قدرة كبيرة على التحليل والتركيب والاستنتاج، مع القدرة على اختيار مواقف كثيرة من حياة المفكرين والفلاسفة والحكام، واستحضارها في مواضعها المناسبة ليدعم بها أفكاره، واللجوء إلى التمثيل بقصص الحيوان لاستخلاص العبرة منها، وتعميق الفكرة وتحقيق القبول والاقتناع عند سامعيه أو قارئيه.

وحتى لا أدخل في تفاصيل هذه النصوص أكثر، وأترك القارئ الكريم يكتشف قوتها وجمالها وعمقها بنفسه، فإنني سأتوقف هنا، آخذا العبرة من إحدى الحكم الكثيرة ذات المغزى العميق التي أوردها لوكيوس أبوليوس في نصوصه، وهي: "أنّ الثناء الذي أناله عن صمتي الذي يأتي في حينه، لا يضاهيه إلا الرضا عن كلامي الذي يحين في أوانه".

قراءة ممتعة ومفيدة لكم جميعا، والمجد لقادة الفكر، والشكر والتقدير للمترجم.

الدكتور محمد السعيد عبدلي، البليدة في 16 أفريل 2023.

مقدمة المترجم

إن الذاكرة الانسانية تحفظ لفيلسوف مداوروش وسيّد البايديا، لوكيوس أبوليوس، ذلك العرض المذهل للمعارف في مرافعته الشهيرة التي تعرض الحظوة الفكرية والمكنة الأدبية والرصيد الفلسفي الأزهري لمثقف نخبوي، والأهم، تعرض تلك الصورة عن الصقل الفكري والأخلاقي الذي كان يكسو نخبة شمال إفريقيا في القرن الثاني ميلادي. أبولوجيا مذهلة، وقلّة من النصوص قد تضاهيها، وهي هبة من التاريخ أن نجد نصا محفوظا في الذاكرة يعود للشخص الذي دعاه "ويرنر رايس" بسقراط إفريقيا، والذي لا يزال الحجر المنقوش في مدخل الشارع الصاعد بمادورا يحفظ له ذلك التكريم الشعبي الذي خصّه به أبناء بلدته في نوميديا القديمة.

يكشف نص الدفاع بوضوح عن الرصيد الثقافي للخطيب، كما يشير أبوليوس إلى مرجعيته الفلسفية الفيثاغورسية المقولبة أفلاطونيا، ولا تزال الدراسات التي اختصت بالمرافعة مذ نشرت لأول مرة سنة 1469 عن مطبعة "أرنولد بانارتس وكونراد سوينهايم" تحت إشراف جيوفاني دي بوسي وبعون الفيلسوف واللاهوتي وعالم الرياضيات نيكولاس كوسانوس، والفيلسوف الأفلاطوني الكاردينال يوهانس بيساريون، تعرض الزاد العلمي لخطيب واسع المعرفة ممتثلٍ للنزعة الفكرية والأدبية للسفسطائية الثانية، وتستبين التقنيات والاستراتيجيات الجنائية في التوظيف المذهل للتقنيات الأدبية والتلاعب بالصور النمطية والعبارات المجازية والتوبوي البلاغي، لدرجة النسف بحياد جمهوره في القضية بمواءمة نفسه في مواضع كثيرة مع الفيلسوف الإغريقي الشهير سقراط، عبر إعادة قولبة فكرة السخرية من سياقها التهكمي إلى طرح تفاعلي استدرج جمهوره المحايد للوقوف في صفه. بل إنّ التمثيل الدرامي، واعتماد تقنيات الخشبة والتدقيق في أمر مناوئيه والسخرية المفرطة منهم جعلت من خطابه مجازا ضخما يحاكي خطاب سقراط الأفلاطوني.

مع أنّ تهمة السحر كانت عقوبتها الموت إلا أنّ أبوليوس قدّم عرضا مذهلا في الخطابة العتيقة، كما أبان عن جانب استعراضي في شخصيته كأحد خطباء السفسطائية الثانية، وكان أحد مقاصد عرضه ذاك تسليط الضوء على السيرة الأدبية الألمعية التي يختصّ بها عبر الاستشهاد بمجموعة مذهلة من أعماله ومنها خطاباته. إذ أشار مخاطبا جمهور صبراتة في محضر دفاعه عن نفسه وتبيان تقواه إلى خطابٍ دويٍّ ألقاهُ في أويا فور إقامته بها، إذ قال: "فمذ ما يقرب من ثلاث سنوات أي إقامتي الأولى في أويا، أبديتُ ذات التّجِلّة في خطابٍ ألقيتهُ للعامّة حول عظمة اسكليبيوس، وسردتُ فيه ما أعرف من الطقوس. للخطبة ذِكرٌ طنّان، يقرؤها القاصي والداني وتتناقلها الأيادي، وما استمدّت شُهرتها من بلاغتي بقدر ما شَغفَ ذِكرُ اسكليبيوس قلوب أهالي أويا الأتقياء". كما أشار في موضع آخر إلى منزلته بين النبلاء كخطيبٍ شهير يملك فهرس أعمالٍ حين تطرّق لمسقط رأسه واصفا موقعها الجغرافي بدقة: "أمّا عن مسقط رأسي فهو يقع على تخوم نوميديا وجيتوليا، ولك أن تتحرّى ذلك من كتاباتي لأني صرّحتُ بأني 'نصف نوميدي، نصف جيتولي' في خطابٍ ألقيتُه بنفسي أمام الملأ وعلى شرف الموقّر لوليانوس أفيتوس".

مجيء أبوليوس إلى أويا كان عرضيّا، من المفترض أن يلقي خطبة في الاسكندرية، وربما كان في طريقه إلى بلاد اليونان في ما بعد، ومن المعلوم أنه كان مفوّها في اللاتينية واليونانية، وهي ميزة خطباء السفسطائية الثانية في العصر الأنطونيني، والذين كانوا يتعاطون مع تيمات مختلفة، مثل الحكايات الشهيرة والمعروفة، وأوصاف الأماكن والمشاهد الرائعة، ومباركة الحكم الروماني والإشادة بالحكام والقضاة ورجال الدولة. غالبا ما كانت هذه العروض تؤدى باللغة اليونانية عن قصد، وكان هؤلاء الخطباء يجوبون أراضي الامبراطورية ويقدّمون خطبهم باللغة العتيقة، وقد اعتاد الجمهور وتمرّن على تلقي هذه الخطابات التي كانت تشعرهم بأنهم امتداد للعالم الثقافي اليوناني الذي كان مرجعية ثقافية قياسية للعالم اللاتيني. وعبر الانغماس في الماضي المجيد، كان الجمهور يطمئن لهويته، ومن جهة

أخرى، وأمام جمهور الناس، كان الحصول على المراتب العليا والمناصب الشرفية مشروعا لهؤلاء الخطباء المقرّبين من السلطة بحكم تكوينهم المعرفي، وكان استبعاد الجماهير وعامة السكان عن الرتب العليا في المجتمع مبرّرا بحكم افتقارهم للتأهيل. ولذلك أضحت للخطابة ميزة أساسية في ترسيخ الحكم والمناصب العليا بيد النخب الغنية داخل السلطة، والقادرة على تكوين أبنائها لدى السفسطائيين، ودفعهم لعرض مواهبهم في الخطابة داخل المحاكم وأمام مجلس الشيوخ أملا في تضمين مكاسب سياسية. وهكذا، تتجلى الآثار الاجتماعية والسياسية لهذه العروض، ويتّضح الدور الأسمى للخطابة في استقرار النظام الاجتماعي والسياسي الروماني.

إنّ الحديث يطول عن فنّ الخطابة في القرن الثاني، وقد يمتد بنا الموضوع كي نتطرق إلى جوانب أخرى، لكن ما يهمّنا في هذا الشأن هو الأثر الأدبي النوميدي في القرن الثاني وتمظهرات الخطابة اللاتينية في بيئة شمال افريقية، وهذا تجيب عنه "فلوريدا" وهي باقة الخطب المحفوظة في التاريخ للروائي الشهير لوكيوس أبوليوس عميد أدباء إفريقيا. وفي ما أشير من جهة إلى أنّ التعاطي مع هذه النصوص يستوجب أكثر من المعرفة اللغوية إذ ننقل الزمن وحمولته الأنتروبولوجية من بيئة معرفية إلى أخرى تختلف المفاهيم فيها وتشتق مفهومها من ثقافة عصرها، فإني أؤكد للقارئ أنني بذلت كل جهدي في نقل النص بأمانة ومسؤولية إلى اللغة العربية حتى يطّلع عبر شواهد في ذاكرة أبوليوس إلى حقبة زمنية عايشها ذوونا في القرن الثاني ميلادي، وإلى وقفات تبدي في طياتها حساسية مفرطة وتجاوبا حميميا مع البيئة الشمال افريقية التي ننتمي إليها.

أشير في النهاية إلى أنّ العمل يتعلق بترجمة خطب فلوريدا الصادرة عن الأستاذ البريطاني هارولد إيدجوورث بوتلر (1878-1951) سنة 1909 بعنوان The Apologia And Florida Of Apuleius Of Madaura من دائرة المنشورات كلارندون لجامعة أوكسفورد ببريطانيا، كما أؤكد على أنّ هذه الترجمة في نسختها الجزائرية الأولى محكّمة علميا ومرجعيا، وأنّ هوامشها في أغلب المواضع قياسية بحكم استنادها إلى

المصادر الأصلية، أملا في فتح الباب على مصراعيه للأكاديميين والباحثين والمهتمين بالشأن التراثي للعودة إلى ما أدعوه بالأدب الجزائري اللاتيني.

أكرم بوعشة

1 - فاتحة خطابٍ ألقي في بلدة مرّبها أبوليوس في مشوار له

إنها عادةٌ مألوفةٌ عند الرحالة المتديّنين؛ رفعُ صلاةٍ، ووهبُ تفاحة، والتوقّفُ لبرهة كلما صادفوا في طريقهم بستانا مقدّسا أو موضعا قُدُسا. ولذا، ومع أنّي على عجالة من أمري أشعرُ وأنا أتخطى الأسوار المهيبة لمدينتكم أنّي ملزم بسؤالكم إذنَ السماح لي بإلقاء خطابٍ أقطع به خطّ مشواري. فما للمسافر في رأيي سببٌ أكبرُ يحدوه للتوقّف كإيماءة وقار؛ لا مذبحا مكلّلا بقطوف الأزهار ولا غارا مظلّلا بأوراق الأشجار، لا قرونا تضفي البلوط زُخرفا ولا جلودا للوحوش تكسو الزان إكليلا، لا أكمةً توحي بوشيعها عن قداستها ولا شجرةً نُحِت إلهٌ في جذعها، لا عُشبا مخضّلا بإراقة لا تزال نديّة، ولا حجرا مخضّبا بدهانةٍ ذي قيمة سريّة. ومع أنّ هذه لا تتعدى كونها أشياء رمزيّة، إلا أنّ قلة قليلة تقصدها وتتقرّب إليها بالعبادة، وتتعداها الأكثرية دون أن تلقيها بالا أو اهتماما.



2 - ما يَفرِقُ بين بصر الرجال والنسر

... لكن معلّمي سقراط لم يقف على هذا الرأي. إذ حدث وأن رأى ذات مرة شابا وسيم الطلعة لم ينطق لفترة ببنت شفة، فأشار إليه: "قل شيئا، لأرى ما أنت عليه". لقد بدا لسقراط أنّ الذي لا يقول كلاما لا يُرى إلى حد ما، كونه يؤمن بأن التطلّع في الرجال لا يكون ببصر الجسد، بل بعين العقل وبصيرة الروح. وهو في هذا الأمر يختلف مع الجندي في بلوتوس الذي يقول: "رجلٌ واحدٌ بأعيانٍ ولا عشرُ شهودٍ بآذانٍ". ولذا، ولغاية النظر في الرجال قام بقلب السطر إلى المعنى التالي: "رجلٌ واحدٌ بآذانٍ ولا عشرُ شهودٍ بأعيانٍ"[1]. وفوق ذلك، إن كانت للعين أحكام أوثق من الروح، فعلينا بالضرورة أن نرجّح كفة الحكمة للنسر. فما نحن معشر البشر بقادرين على رؤية الأشياء التي تَبعدُ عنا ولا حتى تلك التي تقرُب بشدة منا، وهذا ما يجعلنا كُمْها إلى حدٍّ ما. أما إن قيّدتَنا حصرا بالأعين القاصرة ببصرها المادي، ستكون كلمات الشاعر العظيم تنطبق علينا تماما، كما لو أنّ سحابة تُلقى على أعيننا فلا نرى أبعد من مرمى حجر[2]. النسر من جهة يرتقي عاليا في السماء إلى السحب ذاتها، ويجوب ممتطيا بجناحيه ذاك الفضاء عبر زخات المطر والثلج، ليبلغ أصقاعا لا مكان بارتفاعها للصواعق والبروق فيها، إلى عنان السماء وذروة عواصف الأرض. فما أن يسموا عاليا يدير جسده العظيم لينزلق بحركة لطيفة قِبل اليمين أو الشمال موجّها حسب رغبته جناحيه كالأشرعة بفعل تحريك ذيله الذي يقوم على صغر حجمه بدور الدفّة. من ذلك المكان يحدّق في العالم مُبقيا على نفسه في ذاك الارتفاع الشاهق لبعض الوقت بفعل الأجنحة التي تجذفه باستمرار، متّزنا في سكون وهو يحوم في

---

[1] يستشهد أبوليوس بقول ستراتوفانيس في مسرحية Truculentus للكاتب المسرحي الروماني تيتوس ماكيوس بلوتوس: "إنه لا يسرّني أن يُثنى على الذين يسمعون أكثر من الذين يرون؛ رجل واحد بأعيان ولا عشر شهود بآذان. أولئك الذين يسمعون، ينقلون ما سمعوه؛ أولئك الذين يرون، يجزمون بما رأوه".

- Plautus, Truculentus. II. 6. 8.

[2] أنظر:

-Homer, Iliad. III. 12.

تحليقه ويبصر حواليه ليرى أيّ فريسة يختارها ليقع عليها فجأة كالصاعقة من السماء في الأعلى. وبنظرة خاطفة يرى كل قطعان الماشية في الحقل وكل الوحوش في الجبال وكل الرجال في مدائنهم، وجميعهم مهدّد في نفس الوقت بانقضاضه المرتقب، أين يهوي من هناك ليخرق بمنقاره ويقبض بمخالبه الحِمل الغافل والأرنب الآفل، أو أيّ مخلوق حيٍّ دفع به الحظ لجوعه أو براثنه.



3 - قصة مارسياس وتحديه لأبولو

يروى أنّ هياجنس كان الأب والمعلّم للزمّار مارسياس، وكان موهوبا في الغناء أكثر من أيّ شخص آخر طيلة السنوات التي كانت فيها الموسيقى في طور نشوئها، والحق أنّ صوت أنفاسه كان يفتقر حتى تلك اللحظة إلى المقامات الرقيقة، ما جعله يُتقن عدا إيقاعات بسيطة حدّت بشكل كبير من روائع شبّابته. ذلك أنّ الفن كان حديث العهد وابتدأ لتوّه في التطور، فما من شيء يبلغ الكمال من مطلعه، وحاله ككل شيء، يجب أن يباشر التحكّم في أصوله قبل أن يحصّل الخبرة والنجاح. حسنا. إذن، قبل هياجنس، لم يكن بوسع الموسيقيين القيام بأكثر مما كان يفعله رعاة الغنم والبقر لفيرجيل الذين كانوا: "ينفّسون عن آهاتهم في أعواد القش الضامرة"[3]. حتى وإن بدا أحدهم قد أحرز تقدما حقيقيا في الفن، فقد كان يعزف على عود واحد أو بوق واحد. أما هياجنس فقد كان أول من باعد بين أصابعه أثناء عزفه، وأول من ملأ مزمارين بِنَفسٍ واحد، وأول من تحكّم بأنامله في الوقفات وبأيّة واحدة من يديه ليصنع من الصوت الحاد الجهوريّ والرخيم الدويّ تناغما بهيّا. مارسياس ابنه، وبالرغم من امتلاكه لمهارة والده على المزمار، إلا أنه كان في ما عدا ذلك فريجيا همجيا، بلحية قذرة وبوجه متجهّم أشعث كوحش بري، وكان هَلِبَ الجسد مغطى بأكمله بالشعر الخشن، ومع ذلك 'يا للعجب!' سعى وفقا لما يُروى لِيماري أبولو. القبح انتصب ليباري الجمال. جلفٌ فظٌ في مواجهة حكيم، عجماء قُبالةَ إله. أخذت ربات الإلهام أهبتهنّ رفقة مينرفا ليقضوا في الأمر، وأخفوا ضحكاتهنّ ليجعلوا من ادعاء الوحش الجلف مادة للسخرية ويعاقبنه على رعونته. لكن مارسياس، ذلك الأحمق الذي لا مثيل له، لم يدرك بأنه كان موضع استهزاء، وقبل أن يطلق الريح في مزاميره راح يبرطم بلكنته الهمجية عن مناقبه وعن أبولو: فاخر بِعُفرته الملقاة خلفا من جبهته، وبلحيته الكثاء وصدره الأهلب، وبمهارته في العزف على المزامير وبافتقاره

[3] أنظر:

- Virgil, Eclogue. 3. 12.

للثروة. وعلى النقيض من ذلك 'يا للسخف!' راح يهجو أبولو بنقيض هذه الميزات: كونه أبولو، بشعر رأسه السبط، وبوجهه المشرق وجسده الأملد، وبمُكنته في الفنون على تنوعّها وبترامي ثروته. وقال: 'أولا وقبل كل شيء، شعره هُذِّب وجُدِّل خصلا وضفائر ترتمي على طرفي جبينه وتتدلى قبالة وجهه، وجسده أخّاذ من يافوخه حتى إصْبَع قدميه وأطرافه تسطع لمعانا، ولسانه ينطق وحيا ويتقاطر حلاوة في النثر والشعر معا، أيًّا ما اخترتَ منهما. ويا لها من ثياب دقيقة النسج، ناعمة الملمس، تتوهج باللون الأرجواني. وماذا عن قيثارته التي تشعّ بلون الذهب، وتسطع ببياض العاج، وتتلألأ بالجواهر ذات اللون القزحي. وكيف هي أغانيه، كم هي بارعة عذبة. كل هذه العطايا لا تأتي إلا من غُنيٍ ويَسار، ولا تجلب على الفضيلة غير الخزي والعار'. وقام بعدها بعرض جسده كنموذج للكمال. ضحكت ربات الإلهام بسماعهم له وهو يقرّع أبولو على حُظوته بهذه النعم التي يُمني كل حكيم نفسه بامتلاكها، وحين هُزِم هذا الزمّار المفاخر بنفسه وكُشِط جلده كما لو كان دبا ذو قدمين، تركوه وأقتابه تندلقُ معرضة للهواء. هكذا غنى مارسياس لفنائه، وهكذا كان سقوطه. أما بالنسبة لأبولو، فقد كان يخجل بهذا النصر المشين.

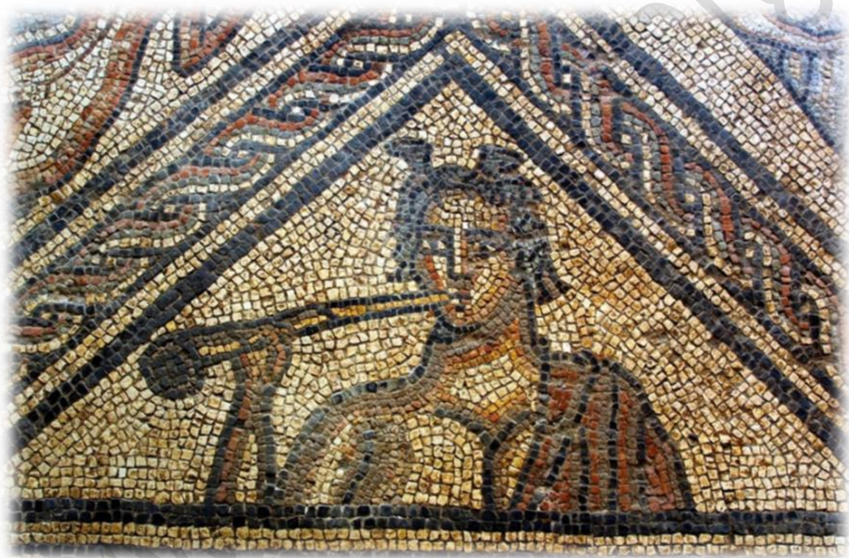


4 - الزمّار أنتيقنداس

كان هناك زمّار يدعى أنتيقنداس[4]، كل نغماته متآلفة معسولة. وكان بارعا أيضا في خلق موسيقى من عدة مقامات، ولك أن تختار ما تريده: إما الأيولي البسيط أو الأيوني المركّب، الليدي التأبيني أو الفريجي الاحتفالي أو الدوري الحربي. وقد قال، ولكونه أشهر من عزف على المزمار، أنّ لا شيء يثير حنقه، ويسدّ قلبه ونفسه أكثر من تعظيم شأن الموسيقيين الذين ينفخون بالبوق في الجنائز بلقب الزمارين. ما كان له إلا أن يحتمل هذه المواءمة في الأسماء برباطة جأش، هذا لو رأى أداء المقلدين: سيلاحظ أن القضاة الذين يتصدّرون المسرح، والممثلين على الركح ممن أتوا لينهالوا على بعضهم البعض بالهراوات يرتدون عمليا الملابس الأرجوانية نفسها. وهل شاهد من قبل ألعابنا أيضا! لكان سيشاهد أحدا يتصدّر، وآخر يصارع، وكلاهما يتشاركان نفس القيم الإنسانية. لرأى دون أدنى شك أن رداء التوجا الروماني يتشمّله على حد سواء من يقدّم نذرا للسماء ومن يتمدّد ميتا في النعش، وأن الميت يُكفّن بالباليوم اليوناني الذي يستتر به الفيلسوف أيضا.

[4] أنتيقنداس. أشهر من عزف على المزمار بطيبة اليونانية، عاش في القرن 4 ق.م وعاصر إيبامينونداس. يعتقد الإغريق أنه ابن الإله ديونيسيوس، وأنّ الأخير هو الذي علمه الموسيقى في شبابه.

- De William Rhys Roberts, The Ancient Boeotians: their characters and culture, and their reputation. Cambridge at the university press, 1895. p. 35.



5- شذرة من فاتحة خطابٍ ألقي في المسرح

إني وحقّ السماء على ثقة أنكم وفدتم هذا المسرح بما في الوجود من طيب خاطر، لأنكم تعلمون أن أيّ خطبة لا تأخذ أهميتها من المكان الذي تلقى فيه، وأنّ ما يراعى أولا في هذا الشأن: 'أيّ شكل من أشكال الترفيه سيقدمّه المسرح؟'. إن كان ممثلا بالإيماء ستضحكون، وإن كان لاعب توازن على الحبل سترتجفون لئلا تزلّ قدمه، وإن كان مؤدي كوميديا ستصفقون له، أما إذا كان رجل حكمة فستتعلّمون منه.



6- عن الهند والحكماء العراة

الهند بلاد مأهولة بالسكان مهولة المساحة، وهي منّا إلى الشرق مناط الثريا، على مقربة من نقطة يعود فيها المحيط ليلاقي نفسه وتطلع منها الشمس، وعلى تلك الحافة التي تطل منها آخر الأراضي على أول نجوم السماء. هي تقع في مكان بعيد، أبعد من المصريين المتعلمين، واليهود المهرطقين، وتجار نبطيه[5]، ومرتدي الثياب الفضفاضة من بني أرساكيس[6]، واليتوريين[7] الذين لا تغلّهم الأرض إلا الشيء القليل، والعرب الذين تكمن ثروتهم في عطورهم. ولذلك لا أعجب من مخازن العاج الهائلة التي يمتلكها هؤلاء الهنود، ومحاصيلهم من الفلفل، وصادراتهم من القرفة، وفولاذهم المصقول بعناية، ومناجمهم من الفضة، وأنهارهم من الذهب. بل لا أتعجّب كثيرا في نهر الغانج الذي يملكون، الأعظم بين كل الأنهار والذي هو:

"سيّد كل مياه المشرق؛ في مائة مجرى يفترق وينشق

وبمائة واد، ومائة مصب؛ يُتخم عرض البحر بزبدٍ من مائة ضعف"[8].

كما لا يذهلني أنّ الهنود الذين يقيمون في بوابات النهار ذاتها يحظون بمسحة من ذات الليل، ولا أنّ الثعابين في أراضيهم الفسيحة تنخرط في قتال الأفيال الضخمة، وكلاهما بنفس القدر من الخطر وبنفس المقدرة على الإفناء: إذ تلفّ وتوثق فريستها بلفائف زلقة حتى لا تقوى على تحرير قوائمها أو فكّ الأقماط الحرشفية لهذه الثعابين اللصيقة بضربٍ من الحيلة، فتجد طريقها للثأر برمي جسدها الضخم أرضا وسحق العدوّ الذي يقيّدها بالثقل الكامل لجسدها. وما لي أتحدّث عن عجائب

[5] نبطية. مملكة عربية قديمة بالمنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة العربية، عاصمتها البتراء بالأردن حاليا.

[6] بني أرساكيس. قد تكون الإشارة هنا إلى أرتاكسيركسيس الثاني والذي تنحدر منه سلالة الملوك الارسكيديين ببلاد الفرس.

[7] إيتورايا. مقاطعة تقع بسفح جبل الشيخ أشهر جبال بلاد الشام لموقعه الاستراتيجي، كان في مضى شمال مملكة الأموريين، يقع بين سوريا ولبنان ويطل على فلسطين والأردن.

[8] الأبيات لصاحبها بيبليوس بابنيوس ستاتيوس، أنظر:

- Statius, Silvae. II. 4. 25.

الحيوان أكثر من البشر، فالقاطنون بهذه الأراضي منقسمون إلى عدة طوائف، هناك من مهارتها الوحيدة في رعاية قطعان الثيران، ومن هنا يأتي اسمهم الثيرانيون. وهناك آخرون يقايضون البضائع بمنتهى الحيلة، وهناك محاربون أشداء في ساحة الوغى وبمهارة عالية في القتال بالنبال عن بعد أو بالسيوف يدا بيد، وهناك دون كل هذا طائفة جديرة بالذكر، يُطلق على أفرادها بالحكماء العراة، وهي التي تثير دهشتي حدّ اللاوصف. إذ لا شأن لهم بالكرمة وزراعتها، أو بالأشجار المثمرة وتطعيمها، أو بالأرض وحراثتها. ولا قبل لهم بزرع الحقول أو غسل العيقان، أو تدجين الخيول أو ترويض الثيران، أو جزّ أو علف الضأن والجديان. حسن. فيما تكمن دعواهم بالتميز إذن؟ هنا: في معرفة أمرٍ يفوق كلّ ما لا يعرفونه شأنا. هم يُجلّون الحكمة فرادى وجماعات، بكبيرهم الذي يُعلِّم، وصغيرهم الذي يَتعلَّم. كلا، بل أجد فيهم ما أمتدحه أكثر وهو خشيتهم على عقولهم من الخمول والعطل. وهكذا، حين تقام مائدة الإطعام، وقبل أن تُصفّ السفرة على ما فيها من طعام، ينصرف كل الشبان عن بيوتهم ومهنهم ليلتحقوا بالمأدبة، ويجيب كل واحد منهم عن سؤال السادة عما قدّمه من عمل صالح بين شروق الشمس واللحظة الآنية. حينئذ يكشف أحدهم كيف اختير حَكَما بين اثنين من زملائه: كيف فضّ نزاعهم، وكيف أصلح ذات بينهم، وكيف بدّد شكوكهم وكيف جعلهم من خصوم إلى خلّان. آخر يروي كيف امتثل طاعةً لأوامر من والديه، وآخر يسرد ما عادت عليه تأملاته من اكتشاف أو بعض المعرفة الجيدة التي حصّلها من جهة ما. هكذا يروي كل واحدٍ من البقية قصّته، وكلّ من لا يستطيع أن يقدّم سببا وجيها للالتحاق بالمأدبة يُدفع ببطن خفيٍّ خارج الأبواب ليستأنف عمله.



7- عن الاسكندر والفلاسفة الأدعياء

تُوّج الاسكندر، أنبل الملوك على الإطلاق، بلقب الأكبر من الأعمال التي دفعها والإمبراطورية التي رفعها. من هنا قُيّض للشخص الذي نال مجدا ألا يُذكر دون لقب الشرف كلما أتى على الألسن ذِكرا، فهو لوحده منذ بداية الزمان، دونما سُجّل لأحد في ذاكرة الإنسان، أو لآخر من غيره بلغ بالإمبراطورية التي فتحها مبلغ الأفقان، من أثبت أنه أكبر حتى من طالعه. فقد بارى بهمّته أعظم النجاحات التي قد يجود بها طالعه عليه، وساواها بجدارته، وتخطّاها بفضائله، وانبرى دون الجميع بمجد لا يشقّ له غبار، فلا يجرؤن أحد على تمنّي مثل فضله، أو ترجّي مثل طالعه. وقد غصّت حياة الاسكندر هذا بطيب الأعمال وحسن الفِعال، بما أظهره في المعركة من بسالةٍ وبالمجلس من حنكةٍ في فنّ الحكم، حتى إنك لتتلقّاها عجبا حتى تلقى منها نَصبا. هي قصة المنجز العظيم هذا، والذي سعى صديقي كليمنس - أكثر الشعراء اطلاعا وابتداعا - أن يقرّظه بضرب من روائع قريضه. والآن، ضِمن الأعمال الاستثنائية التي سُجّلت عن الاسكندر أنه، ولحرصه على أن تُنقلَ صورته للأجيال القادمة بأقل قدر ممكن من التباين، رفض السماح بذلك لعدد من الفنانين على كثرتهم، وقضى في بيان لكل العالم الذي يحكمه ألا يتهوّر أحد وينقل صورة مغشوشة عن الملك بالبرونز أو بألوان الرسام أو بإزميل النحات. وحده بوليكليتوس[9] من بإمكانه أن يصوّره بالبرونز، ولأبيليس[10] دون غيره الحق في رسمه بالألوان، ولا لأحد غير بيركوتليس[11] أن ينحت قوامه بإزميل النحات. فإن وُجد أنّ أحدا دون هؤلاء

[9] أشار الكثير لقصة الاكسندر وصوره، لكن أبوليوس يتلاعب ذهنيا بمستمعيه إذ أنّ المعني بكلامه هو ليسيبوس وليس بوليكليتوس الذي عاش في القرن 5 ق.م أي قبل عصر الاكسندر الأكبر. يريد أبوليوس ضبط ذاكرة جمهوره مع زمن بوليكليتوس الذي عاصر فيدياس أعظم النحاتين الإغريق على البرونز، هذه البراعة سمة تميّز أبوليوس تماما.
- Plin, Nat. 34. 19.

[10] أبيليس الكوسي. يؤكد بليني أنه تفوّق على الرسامين من قبله وحتى من قدموا من بعده، وأنّ مساهمته في الفن التشكيلي لوحدها تفوق ما قدّمه باقي الفنانين مجتمعين، وأنّ فنّه كان لا يضاهى حتى من الرسامين الذين عاصروه.
- Plin, Nat. 35. 36.

[11] بيركوتليس. يؤكد بليني أنّه الوحيد الذي سُمح لو بنقش جوهرة الخاتم بمرسوم من الاسكندر الأكبر شخصيا.
- Plin, Nat. 37. 4.

الثلاث، وكل واحد منهم لا يضاهى في فنّه الذي يختصّ به، قد مدّ يده لينسخ الصورة المحرّمة للملك، فقد أوجب على نفسه العقاب كما لو أنه قام بتدنيس المقدسات. هذا الأمر أثار خشية الجميع لدرجة أنّ الاسكندر لوحده منفردا من كان يتمثّل في صوره دوما، وأن كل تمثال حجري، وكل رسم تشكيلي، وكل مجسّم برونزي، كان يجسد نفس الهمّة القتالية على ضراوتها، نفس العبقرية بعظمتها ورِفعتها، نفس الشباب بحسنه ونظارته، بنفس الجبين الصلت بشعره المتماوج للخلف. فماذا لو كان في وُسع الفلسفة أن تصدر مثل هذا القرار ويؤخذ بنفس القدر من الاعتبار، وتَمنعَ الأفراد من غير ذي رخصة باستنساخ صورتها، لأصبحت دراسة الحكمة والتأمل فيها من كل جوانبها ومناحيها بين أيدي القلة القليلة من أصحاب الصنعة الذين دُرّبوا بعناية، ولما تجرأ الرعاع بعيشهم الدنيّ وتعليمهم السطحي على تقليد الفلاسفة (حتى وإن كان التقليد عندهم لا يتجاوز عباءة المعلّم)[12]، ولما دُنّست ملكة العلوم جميعا، تلك التي ترافع لفضيلةٍ تعني بالخطاب كما في الحياة، بِشرّ الأقوال وسوء الفِعال، ولا شيء أهون من انتهاك الاثنين كما تعلمون بالطبع. وما الذي يأتي بصورة أيسر من الحماقة في الكلام والحقارة في الطبع؟ فالأولى من ازدراء الغير، والأخيرة من ازدراء الذات. لأن الذي لا يحرص على تصرفه بالقدر الكافي لا يحترم نفسه، والذي يهاجم الآخرين بالقول الفظ القبيح وعلى مسمع الناس لا يحترم غيره. أولا تعدّونه ضربا من الوقاحة، ولكم أن تفكروا في ما أقول، أن يخالك شخصٌ ما ستُطرَب سمعا وهو يتناول بالسوء أفضل ما لدى البشر، أو يفترض بأنك لا تفهم الكلمات المبتذلة الخبيثة، أو أنك، إذا ما كنت تفهمها، تعتبرها من طيب الكلام؟ وهل من ريفي ساذج، أو شيّال، أو سبّاء يُعجزهُ السباب ببلاغة تفوق ما لهؤلاء القوم، إذا كان بإمكانه أن يتقلّد عباءة المعلم؟

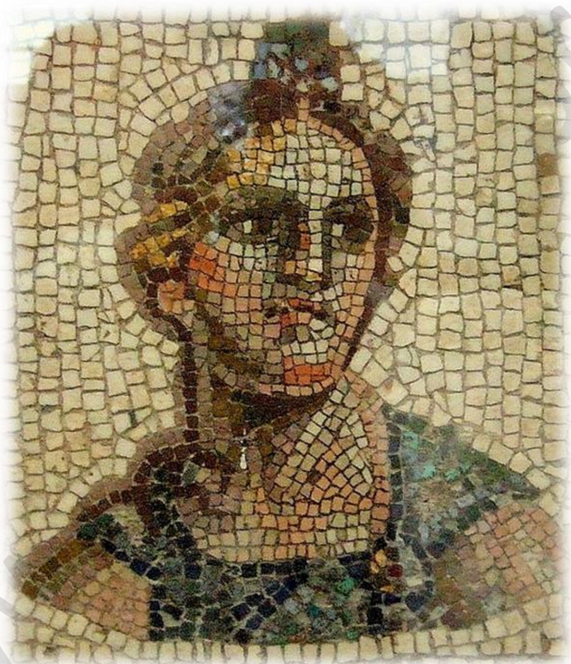
[12] عباءة المعلم. يستذكر أبوليوس بدهاء مقطعا تهكميا لمعاصره النحوي الشهير صاحب مجموعة "الليالي العتيقة" أولوس جيليوس، حيث يحاول رجل ذو لحية طويلة وعباءة هائلة إقناع هيرودس أتيكوس بأنه فيلسوف، فيجيبه الأخير: "إني أرى العباءة والرداء، لكن دون الفيلسوف".

- Aulus Gellius, Attic Nights. 9. 2.



8- مدح لوالي إفريقيا

أنه لأهل للمدح بفضل خلقه أكثر من مقامه، ولو أنّ مركزه لم يبلغه الكثيرون. فمن بين الجموع التي لا تعد ولا تحصى من الرجال نجد القليل أعضاء في مجلس الشيوخ، والقليل من أعضاء مجلس الشيوخ نبلاء، والقليل من النبلاء بلغوا منصب القنصل، والقليل من القناصلة أفاضل، والقليل من الأفاضل مثقفون. حتى إني لأضبط لساني عما عليّ قوله عن رِفعة مقامه، فإنها لكبيرة أن يتزيّا أحد من الرجال بطقم منصبه وإن كان في اللباس أو حتى النعل.



9- دفاعا عن نفسه من منتقديه وإشادة بالبروقنصل سفريانوس

إن صادف وأن كان يجلس في هذا الجمع البهيّ واحد من أولئك الذين يحسدونني أو يكرهونني، ما دمنا نجد في المدينة الكبرى باستمرار من يؤثرون الإساءة على مجاراة الأشخاص الأفضل منهم، وما داموا لا يبلغون شأوهم، يتكلّفون كرههم. هم يفعلون ذلك طبعا لينيروا العتمة التي تحجب أسمائهم بالوميض الصادر مني. أقول، إن أقدم أحد الأشخاص الحسودين بتلطيخ هذا الجمهور المميّز بوصمة حضوره، فسأطلب منه للحظة أن يلقي بنظره على هذا الجمهور المهول وهو يفكّر في شملٍ لم يحدث وأن التئم قبل يومي هذا ليلقي السمع لفيلسوف، ويتدبّر بينه وبين نفسه كيف تهون على أحد سمعته ليظهر هنا اليوم وهو الذي لم يؤخذ في يوم من الأيام هزؤا، فإنما هي مهمة شاقة وأبعد ما هي عن السهولة أن تكون على قدر المأمول فيك حتى من البعض، وإنه ليشقّ عليّ فوق ذلك كله، على ما اكتسبته من شهرة وما تولونه لمهارتي من حسن تقدير، أن أرمي الكلام على عواهنه أو دون تدبّر وتدبير. فهل يغضي أحدكم طرفه عني إن تلفّظت بِلاغيةٍ، أو يتغاضى عن مقطع صوتي واحد نطقته بركاكةٍ؟ وهل لأحدكم أن يقاسيني وأنا أتلعثم بجمل فوضوية معيبة كتلك التي تعلو أفواه المجانين؟ إنكم تتغاضون عن مثل هذه الهفوات عند الآخرين، وكل الصواب في ما تفعلون، لكنكم تُخضِعون كل كلمة أنطقها للفحص الدقيق، وتزنونها بعناية فائقة، وتوازنونها بالمِطمار والمِبرد، وتختبرونها بصقل المخرطة ورِفعة حذاء المسرح التراجيدي. وهكذا هي الضحالة تُؤخذ بالرفق، بقدر ما تُلزَم الوجاهة بالحزم. وكوني على علم بصعوبة المأمورية التي تنتظرني، فأنا لا أسألكم أن تغيّروا ما يخامركم من أراء عني. ومع ذلك ما كنتُ لأخدعكم بالصور الزائفة والمثيرة للشفقة، أنا الذي أشرت بالقول مرارا على بعض الشحاذين الجوالين الذين يتلحّفون جلباب المعلم ليكسبوا لقمة عيشهم. فما الأمر يختص بالوالي لوحده، وحاجب المدينة يعتلي منصة المحكمة وهو يتشمّل رداء التوجا كسيّده. حتى إن الحاجب ينتصب لساعات على قدميه، أو يذرع المراح بين غدوّ ورواح، أو يصيح بأخباره على ما في رئتيه من

نفسٍ. أما الوالي فهو على عكس ذلك، يتلفظ برويّة ويتخذ وقفة بين الحين والآخر، يتحدث جالسا، ويقرأ غالبا من مكتوب. هذا أمر طبيعي. لأن الصوت الجهوري للحاجب هو صوت خادم مأجور، أما الكلمات التي يقرأها الوالي من وثيقة مكتوبة فهي بمنزلة الحُكم، والذي، وبمجرد قراءته، لا يقبل إضافة حرف أو إزالته، طالما يؤخذ على جناح السرعة لِيُحفظ في سجلات الإقليم. ثم إنّ مقامي الأدبي يكشف عن مقاربة متواضعة، فكل ما أتلفّظ به أمامكم يتم تلقينه وقراءته على الفور، وما أقدر على سحب شيء أو تغييره، أو حتى أقوم بتعديل طفيف. ولذا عليّ أن أحرص كل الحرص على ما أقوله أمامكم، وهذا يعني كذلك بأكثر من شكل واحد من أشكال الإنشاء، ولما لِمَلَكتي من آثار تفوق في تنوّعها كل الانجازات المحكمة لهيبياس. فإذا أوليتموني أفضل ما لديكم من اهتمام فسأشرح ما أعنيه بمزيد من التفصيل والدقة. هيبياس[13] كان أحد السفسطائيين، وقد بذّ كل رفاقه في تنوّع إنجازاته، بينما كان كخطيب لا يُعلى عليه. كان معاصرا لسقراط وأصيل إيليس. عن عائلته لا يُعرف شيء، لكن شهرته كانت عظيمة، وثروته متوسطة، فضلا عما كان يحظى به من قريحة وقادة وذاكرة خارقة. وقد خاض في العديد من فروع الدراسة، وكان له الكثير من المنافسين. قدِم هيبياس هذا الذي أتحدث عنه ذات مرة إلى بيزا خلال الألعاب الأولمبية وهو يرتدي ثوبا ملأ الأعين بروعته وحُسن صَنعته. فما كان يبتاع شيئا يرتديه بل كان كل شيء من صنيع يديه: الثياب التي يرتديها، والنعال التي يحتذيها، والمصاغ التي شدّت أنظار الجميع إليه. وهو يرتدي على جلده فانلّة بلحمة ثلاثية وبنسيج ناعم الملمس، مخضّبة بنحو مضاعف بالأحمر الأرجواني، حاكها لنفسه في بيته وبيديه. وكان يشدّ على وسطه بحزامٍ مطرز بمختلف الألوان على الطراز البابلي، وفي هذا أيضا لم يساعده أحد. أما في ظاهره فقد كان يرتدي عباءة بيضاء ترتمي على كتفيه، لا يخفى على أحد أنها كذلك من صُنع يديه. حتى أنه ابتدع بنفسه النعال التي تستر قدميه وخاتم الذهب بطابعه المنقوش ببراعة والذي كان

[13] هيبياس الإليسي. أعاد أبوليوس تقريبا ما دار بين سقراط وهيبياس في حوار أفلاطون "هيبياس الأصغر". أنظر:
- Plato, Lesser Hippias. 368a- 369a.

يبرزه في يده اليسرى، إذ طرق بنفسه طارة الذهب وأغلق موضع الفص على الجوهرة وقام بنقش الحجر الكريم. ومع أني لم أوفيكم بعدُ بكل قصص إنجازاته، لكني لن أتوانى عن تعداد كل العجائب التي لم يجد حرجا في إبدائها. فقد صرّح أمام حشد هائل أنه ابتدع بيديه قنينة الزيت التي يحملها، والتي كانت بشكل كرة مفلطحة بحواف دائرية ناعمة. كما أظهر أيضا مكشطة جلد مذهلة، كانت بمقبض مستقيم، وبلسان مقوّسٍ ومثلّم بقنوات مجوّفة، حتى تكون لليد قبضة محكمة ويجد العرق طريقه عبر مجرى الترشيح في الشفرة. وهل لأحد أن يحجب الثناء عن رجل بمثل هذه المعرفة المتشعبة في العديد من الفنون، والذي حظي بمثل هذا المجد في كل فرع من فروع المعرفة، وكان في الواقع بمهارة دايدالوس نفسه في تصميم العديد من المعدات المفيدة؟ أبدا! أنا عن نفسي أشيد بهيبياس، لكني آثر تقليد عبقريته الخلاقة في مسائل التعلّم أكثر من المتاع الذي كان يحوزهُ بوفرةٍ، كما أقرّ بامتلاكي لِدُربة لا تكترث بمثل هذه الفنون الآبدة. حين أرغب في ملابس أبتاعها من النسّاج، وحين أرغب في صنادل مثل التي أرتديها الآن أشتريها من الاسكافي، كما إني لا أرتدي خاتما كوني لا أرى للذهب والأحجار الكريمة قيمة تفرِقُ عن الحصى والرزاز، وأما عن كاشطات الجلد وقنينات الزيت وباقي لوازم الحمام فأنا أتزوّد بها من السوق. ولن أمضي بهذا الإنكار إلى الحدّ الذي أبدوا فيه وكأني أجهل تماما كيف استخدم الكبّة والمخرز، والمِبرد والمخرطة، وما شابه من الأدوات. لكني آثر بشكل مطلق قلما واحد بسيطا على كل هذه المعدات، والذي قد أخطّ به أشعارا من كل الفئات، بما يليق مع صولجان الراوي[14] ومواكبة الكِنّارة وطلاوة مسرح الملهاة والمأساة، وأدوّن كذلك أهاجي وأحاجي وتواريخ من شتى الموضوعات، وما امتدحه الفُصحاء من مقامات والحُصفاء من حوارات. كلا بل أكتب هذا كلّه وكثيرا غيره بلسان مثيلٍ طلقٍ في اليونانية كما في اللاتينية، وبقدرٍ مساوٍ في المتعة وبذات الحميّة

---

[14] صولجان الراوي. يعود التقليد إلى عصر ما بعد هوميروس، في الرابسوديا تحديدا، أي إلقاء الشعر الملحمي. إذ كانت ملاحم هوميروس وهيسيودس وغيرهم تروى من قبل شعراء محترفين يرتدون عباءة ويحملون صولجانا.

- Thomas Spencer Baynes, The Encyclopædia Britannica: A Dictionary of Arts, Sciences, and General Literature, Volume 12. Philadelphia: Maxwell Sommerville, 1891. p. 11.

والمُكنة، وكم كان ليروقني أيها الحاكم عظيم الشأن لو كان بوسعي أن أعرض كل ما في جعبتي من أعمال، لا منقوصة أو مقصوصة بل بكمال واكتمال! كنتُ لأنعم بألق شهادتك الذي لا يقدّر بثمنٍ على ما جَبَلَتهُ دُربتي من خلفٍ! وما الحال لأني بحاجة لثناء، لأن مجدي ما فتئ ينتصب مزهرا مزدهرا أمام أعين أسلافك جميعا حتى يُعرض اليوم أمامك! لكن الأمر يطربني منك دون غيرك حين أكون موضع إعجابك، لأني معجب بك دون جميع الرجال على ما هم دونه من فضائلك. وما الأمر إلا ترتيب الطبيعة: الثناء يوحي بالمحبة، وبمجرد أن يُمنح الحب للغير فإنا نطالبه بالثناء في المقابل. وها أنا ذا أقرّ بأني أحبك دونما يحدوني للتقرب من شخصك شأن يعنيني فإنما أنا على عهدي لصفتك العامة، كما لم يسبق وأن تلقّيت منك معروفا لأني لم أطلب ذلك يوما. والحال أن الفلسفة علّمتني ألا أوفي الحب حصرا للمحسنين إليّ، بل حتى أولئك الذين أضروا بي، وأن أولي أهمية أكبر للعدالة على مصالحي الخاصة، وأن آثر دعم الصالح العام على خدمة شخصي. وفي الوقت الذي يحبك أغلب الرجال بقدر ما يعود عليهم صلاحك نفعا، أحبك أنا بقدر الحميّة التي تدفع صلاحك دفعا، وهذا هو سرّ تفانيّ وإخلاصي. فقد رأيت من اعتدالك في التعاطي مع شؤون الرعية في هذا الإقليم ما كسب قلوب أولئك الذين جمعهم بك الخير الذي أصابوه منك، وأولئك الذين لم يتمّ جمعهم بك بما رسّخته من مثالٍ حسنٍ عن نفسك، فبينما أصاب الكثير منك نوالا، استفاد الكل منك مثالا. وهل لأحد منا ألا يتعلّم منك بسرور بأي اعتدال يحظى المرء بوقارك المؤنق، ومن صرامتك التي تغلب عليها الرحمة ومن ثباتك الذي لا يتزعزع ومن الطابع الليّن لعريكتك؟ فبحسب علمي لم يكن لإفريقيا حاكم تعظّمه أكثر أو تخشاه أقل، حتى إنّ عام قنصليتك هذا يعدّ استثناء إذ أنّ العار فيه يكبح الجريمة أكثر من الخوف. لم يحدث وأن مُكّن أحدٌ بمثل سلطتك فبورك بها أكثر مما خُيّف منها، كما لم يسبق لحاكمٍ أن جلب معه ابنا له من فضائل أبيه أكثر مما لديك، ولهذا السبب لم يُقِم حاكمٌ في قرطاج فترةً أكثر مما أقمت. فقد ظلّ هونورينوس طيلة الفترة التي كرّستها لتفقّد الإقليم معنا، ولذا، وبالرغم من أننا كنا آسفين لغياب حاكمنا كما لم يسبق لنا من قبل، إلا أننا

شعرنا بذلك على نحو أقل، لأنّ للولد حسّ والده في العدل، وللشاب كل ما للأشيب من رجاحة العقل، وللوكيل كلّ سطوة القنصل. هو يجسّد باختصار تجلّيا واضحا وصريحا لفضائلك، حتى إني أشهد بأن المجد الذي حصّله شاب في مقتبل العمر سيصبح مدعاة للعجب إن قارنّاه بك، عدا أنّ هناك حقيقة تُذكر، أنه ورث ذلك عنك. ليتنا نعيش تحت نعيم حضوره الأبدي ! وما حاجتنا بتغيير الحكام؟ أيُّ فائدةٍ تُرجى من هذه السنوات الموجزة، والأشهر العابرة في المنصب؟ آه! كيف تمضي الأيام في لمح البصر والأخيار ما بيننا؟ كيف تنقضي فترة الحكم بعجالة لكل أولئك الأفاضل الذين حكمونا! آه يا سفريانوس[15]، رحيلك سيثير الأسى في المقاطعة بأكملها، لكن هونورينوس قد تمّ استدعاؤه على الأقل بالتشريفات الحقيق بها؛ الحكامة في انتظاره؛ جميل القياصرة الاثنين يدعوه للقنصلية. اليوم نغمره حبا، وآمال قرطاج تحمل إلينا بشرى بأنه في قادم السنوات سيكون هنا مرة أخرى. وإنّ لنا في مثالك سلوانا، بأن الذي خدم وكيلا سيعود إلينا حاكما !

[15] يتضح أن التاريخ الحقيقي لهذا الخطاب كان قطعا في 161م؛ من جهة لأن أبوليوس أشار ل "جميل القياصرة الاثنين" أي فترة الحكم المزدوج بين سنوات 161م-169م لكل من ماركوس أوريليوس ولوكيوس أوريليوس فيروس، من جهة أخرى تؤكد المصادر أن سيفيريانوس شغل منصب حاكم كابادوكيا (تركيا الحديثة) في 162م.

- Charles Joseph Tissot, Fastes de la province romaine d'Afrique. C. Klincksieck, 1885. pp. 108-109.



10- عن العناية الإلهية وعجائبها

"نحيّيكِ في البدء أيتها الجونة، يا من يعكس مضمارها الناري وأجيادها الحرونة، الوهج الساطع من شعلة رعونة"[16]. كما نحييكَ أيضا أيها القمر، يا من تبيّن بنوره كيف يُشرق بذاته، وقوى الكواكب الخمسة كذلك؛ جوبيتر الذي يجلب البركة، وفينوس التي تستحضر اللذة، وميركيوري مانح الخفّة، وساتورن مثير البلاء، ومارس بجِبلّته النارية. وهناك أيضا قوى إلهية أخرى، تتوسّط ما بين السماء والأرض، قوى قد نستشعرها ولكن لا نراها، كما هو الحال مع سطوة الحب وما شابهها؛ قوى نتحسّسها مع أننا لم نشهد شكلها أبدا[17]. وبالمثل على الأرض أوعزت هذه القوة، طبقا للأوامر الحكيمة للعناية الإلهية، قمم الجبال الباذخة لترتفع هنا، ومدّت وِهاد السهل المبسوطة هناك، وصوّرت مجاري الأنهار، وخضرة المروج، ومنحت القدرة للطّير على التحليق، والسوارب على الزحف، والوحوش البرية على الجري والبشر على المشي.

---

[16] يقدّر أنّ أبوليوس يحوّر بدهاء مقدمة الشاعر الإغريقي التراجيدي يوريبيديس في رائعته "الفينيقية".

- Euripides, Phoenissae. 1.

[17] تحدّث أبوليوس في مرافعته الشهيرة "أبولوجيا" عن قوى إلهية تتوسط السماء، هي في حقيقة الأمر تعاليم أفلاطونية. أنظر:

- Apuleius, Apologia. 43.



11- مقارنة بين أولئك الذين تعوزهم الثروة وأولئك الذين تعوزهم الفضيلة

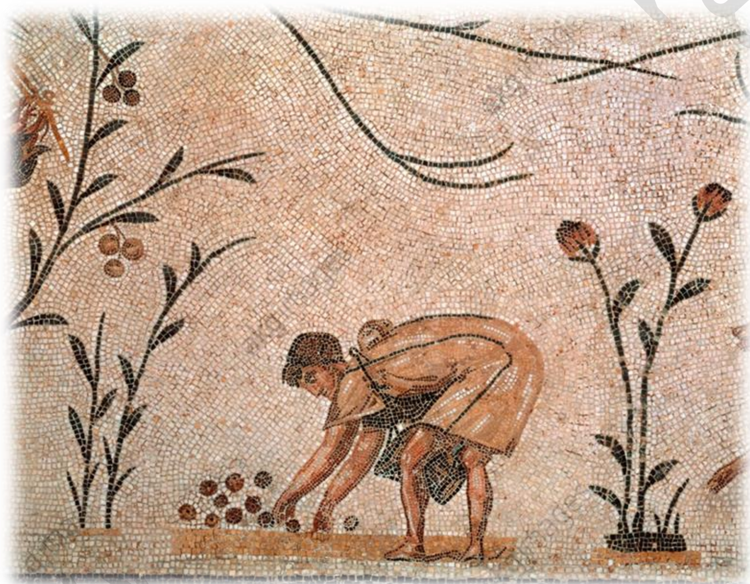
إنّ الذي يملك روحا مجرّدة من الفضيلة كحال أولئك الأشقياء المُعدمين الذين يمتهنون الفلاحة في ميراث أجرد من الحقول الحجرية، ليس بها إلا أكوام من الصخر والشوك. هم لا يصيبون من براريهم حصيدا، ولا يجدون ثمرا في صعيدٍ:

"يطغى عليه الشوفان البري والزوان المخملي"[18].

حتى إنّ الحاجة التي يقرّون بها في أنفسهم تحدوهم للسطو على ثمار الغير ونهب جنائنهم، وبذلك يخلطون زهور جيرانهم بما لديهم من أشواك.

[18] أنظر:

-Vergilius Maro, Georgics. 1. 154.



12- عن الببغاء

الببغاء طائر هندي، يصغُر الحمام قليلا في الحجم ولا يجمعه به شبَهٌ لوني. فما أوتي شيئا من بياض حليبي أو أزرق أربدي، متداخل كان أو بادي، ولا حتى أصفر يميّز الحمام بلونه الباهت أو القزحي. الببغاء أخضرٌ ريشه من منابته حتى أطرافه عدا بعض العلامات على العنق، لأن عنقه الصغير مطوّق ومتوّج بحزام رفيع قِرمِزيّ يبدو وكأنه طوق من الذهب، يبدي على طول ارتمائه ذات البريق. منقاره قاس للغاية، إن هوى رأسا على صخرة ما بعد ارتفاعه عاليا، لَكُسرت من قوة سقوطه بمنقاره الذي يستخدمه كمرساة. حتى إنّ رأسه لا يقل صلابة عن منقاره، فهو حين يُلقّن تقليد الكلام البشري، يُطرق على رأسه بقضيب حديدي ليستشفّ بذلك أمر سيّده، تماما مثل عصا أيام الدراسة. يمكن تعليمه الكلام منذ يوم ولادته حتى عامه الثاني ما دام فمه يطيعه في غمرة نموّه ولسانه يطاوعه كفاية لتضمين التحويرات اللازمة. أما من جهة أخرى، إن تمّ إمساك واحدٍ فارضٍ فمن الصعب تلقينه ما ينسيه في ما تعلّمه مسبقا. الببغاء الذي يسهل تعليمه لغة الإنسان يتغذى على الجوز، وكحال البشر يملك خمسة أصابع في كلٍّ من قائميه. هذه الخاصية الأخيرة لا تملكها كل الببغاوات، لكن هناك نقطة تشترك فيها جميعا: لسانها أكبر مما لدى أيّ طائر. هكذا يلفظون كلمات البشر بيسر أكبر اعتمادا على حجم حنكهم والذي هو أُرغُن الكلام. ما أن يتعلّم شيئا ينشدهُ أو بالأحرى ينطقه بمثل تلك البراعة حتى إنك لتعتقد فور ما تستمع لهُ أنك كنت تستمع لشخص ما يتحدثُ. أما إن كنت تلقي السمع لغراب يحاول النطق لظللتَ تدعو النتيجة "نعيبا" لا "كلاما". ومع ذلك فإن الحال لا يفرِقُ بين الببغاء والغراب في أمرٍ: هم لا ينطقون إلا الكلمات التي تعلّموها. علِّم الببغاء أن يلعن وسيلعن دون توقّف حتى يخسف ليلك ونهارك بِلِعانه؛ يصبح اللعن لحنه الفطري وتصوّره للنغم، وهكذا حين يردّد كل لِعانه يكرّر المقطوعة من جديد. وليس لك إن أردت تخليص نفسك من كلامه المقذع إلا أن تقطع لسانه أو تعيده بأسرع ما يمكن لغابته الأصلية.



13- مقارنة بين بلاغة الفيلسوف وتغريد الطيور

... لأن ما أفاءت عليّ الفلسفة من لسَنٍ لا يشبه ما فاءت الطبيعة على الطيور من لحنٍ، تلك التي تغرّد بقدَرٍ وفي أزمنة مقدّرةٍ. فعلى سبيل الذكر تغرّد طيور السنونو في الصبيحة، والدغناش في الظهيرة، وبومة الليل في الهزيع الأخير منه، والبومة الصياحة في الأمسية، والبومة القرناء في منتصف الليل، والديك مع مطلع الشمس. حتى إنّ هذه الحيوانات تبدو بحقّ كما لو أنها اتّفقت في ما بينها على مختلف الأوقات والنغمات لأغرودتها. فصياح الديك صوتٌ من شأنه إيقاظ الناس من فرشهم، والبومة القرناء تتأوّهُ، والبومة الصياحة تزعقُ، وبومة الليل تنوحُ "تيويت - تيوو"، وطيور الدغناش تسقسقُ، والسنونو بصوت عال تشقشقُ. أما حكمة الفيلسوف وبلاغته فكلتاهما جاهزة في أيّ وقت، تبثّ الرهبة في السامعين، وتنفع ملكة الفهم، وتصدر موسيقى من كل الألحان.



14- عن كراتس الكلبي

... لقد كان لهذه الحجج وأخرى مثيلة سمعها من شفاه ديوجنس، فضلا عن غيرها وجدت طريقها إليه في مناسبات عدّة، أثر بالغ على كراتس[19]، حتى قادته رأسا إلى السوق ليتنازل هناك عن كل ثروته على أنها مجرد حملٍ قذرٍ، وإصرًا لا خير فيه. فما أن التأم الجمع من حوله بفعل تصرّفه، صرخ فيهم يقول بأعلى صوته: "كراتس، حتى كراتس يخلي سبيلك". ما عاش مُذّاك في معزلٍ فحسب، بل عاريا وفي حرية مطلقة، وفي صفوٍ من العيش طيلة حياته. وكان لهذا الشغف وقْعهُ حتى إنّ عذراء نبيلة المولد درجت من قبلُ على رفض خطّاب أكثر منه شبابا وثراء ذهبت في الواقع إلى حدّ التوسّل إليه ليتزوّجها. وفي ردّه كشف كراتس عن أكتافه التي تعلوها حدبة، وطرح خُرجه وعصاه وعباءته أرضا، وقال للفتاة: "هذا كل متاعي! ويمكن لعينيك أن تحكم على بهائي؛ خذي مشورة جيدة لئلا أجدك تشتكين من نصيبك". لكن هيبارش رضيت بظروفه، وردّت بأنها قد نظرت مليّا في المسألة وأخذت مشورة كافية، لأنها لن تجد في هذا العالم بأسره رجلا بمثل حسنه وثرائه: "خذني حيث شئت". ذرفت دموعها و...

---

[19] كراتس. تحدث عنه أبوليوس في مرافعته الشهيرة "أبولوجيا".

-Apuleius, Apologia. 22.



15- عن جزيرة ساموس وفيثاغورس

ساموس جزيرة متوسطة المساحة في البحر الإيكاري، تقع قبالة ميليتيس إلى الغرب، ولا يفصل بينهما إلا مساحة صغيرة من البحر. أيّا كانت الوجهة التي تبحر إليها من هاته الجزيرة، وإن لم تكن على عجلة من أمرك، ألفيتَ نفسك في اليوم التالي آمنا في مرسى للسفن. لا تطاوعك الأرض في زراعة الذرة، كما أنّ حرثها مضيعة للوقت. غير أنّ الزيتون ينمو فيها بشكل أفضل، ولا تصعبُ الكروم أو الخضروات على زارعيها. يعكف مزارعوها بجدية كبيرة على عزق الأرض وزراعة الأشجار كون ساموس تستمد من هذه المحاصيل ثروتها لا من الحبوب. سكانها الأصليون كثرٌ، كما يتردّد على الجزيرة الكثير من الغرباء. عاصمة المدينة غير جديرة بسمعتها، لكن الآثار الهائلة لأسوارها تشهد على حجمها السابق. بها معبد متطيّر الشهرة لجونو يعود للعصور الغابرة، إن أردت بلوغه - إن لم تخني الذاكرة - فعلى المرء أن يتبع الشاطئ لما لا يزيد على عشرين فرسخا من المدينة. خزينة الإلهة تفيض ثراء، وبها ما لا يعدّ ولا يحصى من صفائح الذهب والفضة على ما هي عليه من أطباق ومراءٍ وأقداح وأوانٍ من كلّ الأشكال. كما توجد كمية معتبرة من الصور النحاسية بأصناف عديدة، تبدو ضاربة في القدم وجدّ متقنة في الصنعة. وأذكر إحداها على وجه الخصوص، تمثال باثيلوس ينتصب أمام المذبح.

لقد كانت هديةً من الطاغية بوليكراتس[20]، أنا عن نفسي لم أر في حياتي ما يفوقه كمالا؛ البعض يظنّه يصوّر فيثاغورس، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب. يعرض التمثال شابا له من الجمال ما يشدّ الأعين إليه؛ شعره يفترق نصفين عند منتصف جبهته ليرتمي على كلٍّ من وجنتيه، ويسترسل إلى الخلف بطوله وصولا لكتفيه حتى يغطي العنق الذي يمكن للمرء تمييز بياضه بين الضفائر؛ العنق ريّان، والحنكان

---

[20] بوليكراتس الساموسي. عاش في القرن 6 ق.م. أحد أكثر الطغاة حظا وشرا في تاريخ اليونان. توّج نفسه سيدا على جزيرة ساموس بعون أخويه بانتاغنوتوس وسيلوسون. ثم استأثر بالحكم بعدما قتل بانتاغنوتوس ونفى سيلوسون.

-William Smith, Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology, Volume 3. C.C. Little and J. Brown, 1849. pp. 459-460.

وافيان، والوجنتان ناعمتان، فضلا عن غمّازة في منتصف ذقنه؛ هو يتّخذ وضعية لاعب على القيثارة، ويبصر صوب الإلهة، وله مظهر من يغني؛ أما ثيابه المطرزة فهي تنسدل إلى أخمص قدميه، مشدودة على الطراز الإغريقي. كما تغطي العباءة كلا من ذراعيه نزولا إلى الرسغين، وباقيها يتهدّل في طيّات أنيقة؛ قيثارته مشدودة بنجادٍ منقوشٍ يشدّها قريبا إلى الجسد؛ يداه رقيقتان ومستدقّتان، تلمس اليسرى الأوتار بأنامل منفرجة، واليمنى في وضع العزف تدنو بالريشة إلى القيثارة كما لو أنها تأخذ أهبتها لتعزف بمجرد انقطاع الصوت عن الغناء للحظة، حتى إنّ الأغنية تبدو وكأنما تنساب من الفم العذب بتلك الشفاه النصف مفتوحة لهذا الغرض. قد يجسّد هذا التمثال أحد المعشوقين الشباب للطاغية بوليكراتس وهو يتغنى بحبّ سيّده على الطريقة الأناكريونية، أما أن يكون التمثال للفيلسوف فيثاغورس فهذا مستبعد بالمرة. صحيح أنه كان من أبناء ساموس وبقدرٍ كبير من الوسامة وبمقدرةٍ استثنائية في العزف على القيثارة وكل صنوف الموسيقى، وأنه عاش في ظل حكم بوليكراتس على ساموس، لكن الفيلسوف أبعد ما يكون عن النوع المفضل لهذا الطاغية. والواقع أن فيثاغورس هرب سرا من الجزيرة في بداية عهد الطاغية، وقد اقترن ذلك مع حدث فقدانه لوالده منيسارخوس الذي كان - كما قرأتُ - جواهريا موهوبا بارعا في النقش على الحجارة الكريمة، وكان في امتهانه لهذا الفن ينشد رِفعةً لاسمه لا ثروةً من ورائه. هناك من يؤكد أنّ فيثاغورس كان في ذلك الوقت من بين أسرى الملك قمبيز[21] الذين نقلوا إلى مصر، ودرس على يد مجوس بلاد الفرس وبشكل أخص على يد زرادشت كاهن جميع الأسرار المقدسة، وأنه افتُدي فيما بعد من قِبل جيلوس ملك كروتون[22]. ومع ذلك فإن الرواية الأكثر قبولا على العموم تؤكد أنه ذهب بمحض إرادته لدراسة حكمة المصريين، أين ابتدأ كهنتهم بتلقينه الخبايا

---

[21] قمبيز ملك الاخمينيين الفرس. خلف الشاه قورش العظيم؛ حكم بين سنوات 529- 522 ق.م.

-Philip Smith, The Student's Ancient History: The Ancient History of the East. From the Earliest Times to the Conquest by Alexander the Great. Harper & brothers, 1882. pp. 552-566.

[22] جيلوس. يعتبر أبوليوس من المصادر النادرة التي تؤكد أنّه افتدى فيثاغورس من الملك قمبيز.

-Richard Bentley, A Dissertation Upon the Epistles of Phalaris. C. Boyle. J. Cuthell, 1817. p. 51.

المقدسة لمناسكهم نهايةً بكل المعتقد، ثم تعلّم الأرقام بكل تراكيبها الرائعة، وقوانين الهندسة المُحكمة. بل ولم تكفه هذه العلوم، إذ تقرّب فيما بعد من الكلدانيين وأيضا البراهمة وهم سلالة من الحكماء تعيش ببلاد الهند، ومن ضمن هؤلاء البراهمة سعى تحديدا خلف الحكماء العراة. وقد علّمه الكلدانيون علم النجوم، والمدارات الثابتة لأسياد السماء الطوافين وسطوة كل واحد منهم على مواليد البشر، كما علّموه أيضا فن التطبيب وكشفوا له عن علاجات أفنى الرجال ثرواتهم في البحث عنها وسعوا في أقاصي البر والبحر خلفها. لكن من البراهمة حصّل الجزء الأكبر من فلسفته، فنونًا لتعليم العقل وإخضاع الجسد، عقائدًا تتعلق بأجزاء الروح وتناسخها، معرفةً في ما قُيّض للمرء من عذاب وثواب قضى به عالم الآلهة السفلي جزاء. أيضا اتّخذ فيريسيدس[23] معلّما له وهو أصيل جزيرة سيروس وأول من تجرّأ على التخلص من أغلال الشعر والكتابة بأسلوب حرٍّ من النثر غير المقيّد؛ وقد قضى فيريسيدس نحبه بمرض شنيع، فقد تعفّن لحمه وتآكل بفعل القمل، حتى إنّ فيثاغورس دفنه بمنتهى الحيطة والحذر.

قيل أيضا أنه درس قواعد الطبيعة على يد أناكسمندر الملطي[24]، وأنه اتّبع ايبيمنيدس الكريتي[25] وهو متنبئ متطيّر الشهرة وخِرّيت في طقوس الكفارة، وقد تعلّم

---

[23] فيريسيدس الساموسي، تلميذ بيتاكوس. يؤكد ثيوبومبوس أنه أول من كتب باليونانية عن الطبيعة والآلهة. أرسل إلى طاليس رسالة يؤكد فيها مرضه الشديد.

-Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers. 1. 11 .

[24] أناكسمندر. فيلسوف وعالم رياضيات اغريقي ولد في ميلتوس سنة 611 ق.م وتوفي سنة 547 ق.م. خلف طاليس على رأس المدرسة الميليسية. كان ينكر وجود الآلهة وينسب أصل كل الأشياء والموجودات لقوى الطبيعة.

-The Free Thought Magazine, Volume 21. H.L. Green, 1903. p. 25.

[25] ايبيمنيدس ابن دوسيادس من جزيرة كريت. اعتبره الاغريق حكيمًا عظيمًا ومفضلًا للآلهة، حتى إن الأثينيين لما مسّهم الطاعون في 596 ق.م أرسلوا إليه لتطهير المدينة، وكان لهم ذلك إذ جاءهم وأدى المهمة المطلوبة من خلال طقوس غامضة. قرر الأثينيون أن يكافئوه لكن ايبيمنيدس رفض المال، ورغب فقط في إقامة صداقة بين أثينا وكنوسوس.

-William Smith, Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology: Earinus-Nyx. J. Murray, 1880. p. 37.

منه وكذلك من ليوداماس[26] تلميذ كريوفيلوس النزيل المكنّى للشاعر هوميروس وغريمه. وبنهله العلم من حكماء كثر، وتروّيه من مثل هذه المسودات الغزيرة المدرارة بالمعرفة قدر ما تَسع الأرض، ولكونه ينعم بعقل فعّال تفوق مداركه ما يمكن للبشر استيعابه، فقد كان هو مؤسس العلم ومبتكر لفظ الفلسفة. كان أول دروسه لتلامذته درس الصمت، وكان معه التأمّل مطلبا ضروريا للحكمة، فالتأمل يضع اللجام على كل كلام، ويتخطّف الكلمات التي يجنّحها الشعراء من أجنحتها ليحجزها خلف الحاجز الأبيض لأسناننا، وقد كانت هذه بالنسبة إليه، تماما كما أقول لك، أول قاعدة بديهية للحكمة: "في التأمل دراية، وفي الكلام جهالة". ومع ذلك، ما أحجم تلامذته عن الكلام طيلة حياتهم، وما حملهم سيّدهم على البقاء بُكما فترةً من الزمن؛ لأن الصمت الوجيز حتى لدى الأشخاص الأكثر حزما كان يعتبر نظاما كافيا، أما الثرثارون فقد كانوا يُعاقَبون بالحظر عن الكلام لما يَقرُبُ من خمس سنوات. قد أضيف أيضا أنّ معلمي أفلاطون لا يحيد إلا قليلا أو مطلقا عن تعاليم هذه المدرسة، وهو حسبما تأتي أقواله في مجملها واحد من أتباع فيثاغورس. وقد أُدعى أنا أيضا بِحقٍ لعلني أحوزه من أسيادي واحدا من أتباعه، فقد تعلمت هذا الدرس المزدوج في سياق دراستي الفلسفية: أن أتحدّث بجرأة في محضرٍ يستوجب الكلام، وأن أطبق لساني بكل سرور في مقامٍ يقتضي الصمت. وجزاءً على ضبط النفس هذا، قد أدّعي وأقول أنّ الثناء الذي نلتُه من أسلافك على صمتي الذي يأتي في حينه لا يضاهيه إلا الرضا عن كلامي الذي يحين في أوانه.

---

[26] ليوداماس. وفقا لديوجنس فإن أبوليوس يقصد هيرموداماس سليل كريوفيلوس.

-Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers. 8. 1.


ΑΥΡΙΟΝΚΥΡΙ
ΡΟΝΑ
ΟΔ
ΚΑΙΕΚ
ΜΗΤ
ΩΡΟΣ

16- خطاب عرفان لأيميليانوس سترابو ومجلس شيوخ قرطاج لرفع تمثال على شرفه

قبل أن آخذ في الكلام، بودّي أن أشكركم على التمثال يا ممثلي إفريقيا العِظام، إذ كان لي الشرف وأنا بينكم أن رفعتموهُ طلبا، بل وختمتم على كرمكم أن أقمتموهُ وأنا دونكم نُصُبا. أودّ في البدء أن أشرح لكم لِم تغيّبت عن أنظار جمهوري كل تلك الأيام وسقت نفسي للحمامات الفارسية، حيث قد يجد المعافى استحماما منعشا، والسقيم تَروِيحا قد يكون في أمسّ الحاجة إليه. وقد عقدت العزم أن أوضح لكم، يا من كرّست نفسي بما لا رجعة فيه وإلى الأبد خدمةً لهم، أني عشت كل لحظة من حياتي حقا، وأنّ كل تصرُّفٍ أقدمتُ عليه، مهمًّا كان أو تافها، فلكم أن تعلموه بل وتصدروا حكمكم في شأنه. حسن إذن! حتى نستبين سبب غيابي المفاجئ عن حضور هذا المحفل الكريم، سأقصّ عليكم حكايةً للشاعر الساخر فيلمون[27] لا تفرق عن حكايتي كثيرا، وستريكم كيف تأتي المخاطر فلتة وعلى حين غرة لتهدّد حياة الإنسان. جميعكم يدري بشأن مواهبه، فاستمعوا إذن إلى بضع كلمات عن وفاته، أو لعلكم تحبّون بضع كلمات عن مواهبه أيضا.

كان فيلمون شاعرا، وكاتبا في فن الملهاة الوسيطة، كما ألّف مسرحيات في منافسة ميناندر مباريا إيّاه. صحيح أنه قد لا يكون ندّا له، لكن بالتأكيد كان غريمه، وإن كنتُ أسجّل ولو باستحياء أنه قد تغلّب عليه في كم من مرة. على كل حال، قد يُعزى ذلك لروح الفكاهة التي تجدها تطغى على أعماله: الحبكات مليئة بالمكائد المدبّرة بذكاء وحلول العقد جليّة، الشخوص تليق بالمواقف والكلمات جدّ واقعية، وكما لا تكون الدعابات إلا جديرة بملهاة حقيقية، لا تبلغ المقاطع الجادة قطّ مبلغ المأساة.

[27] فيلمون. شاعر كوميدي شهير. ولد حوالي 360 ق.م بصولي في قيليقية أو سرقوسة بصقلية. كان أول شاعر في ما يسمى في عصره بالكوميديا الجديدة. بدأ بعرض مسرحياته الكوميدية في 330 ق.م ونال شهرة عظيمة بين الأثينيين خصوصا بتفوقه على ميناندر في ما يتعلق بالدراما. توفي سنة 262 ق.م.

-Joseph Thomas, The Universal Dictionary of Biography and Mythology, Vol III: Iac - Pro. Cosimo classics, 2010. p. 1784.

تندرُ الغوايات في مسرحياته: حين يعرض شؤون الحب، يبدو كما لو أنه إقرارٌ بالضعف البشري. ومع ذلك فهذا لا يحول في مسرحياته دون تواجد قوّاد خؤون، العاشق الولهان، العبد الماكر، العشيقة العابثة، الزوجة الغيورة صاحبة الكلمة العليا، الأم الرؤوم، العم القاسي، الصديق في ضيق، الجندي المحارب، الطفيليون الجوعى، الأولياء البخلاء، المومسات السليطات. وفي يوم ما، وبعدما أخذت روعاته وقتها في جعله كاتبا مكنّى في الكوميديا، حدث أن ألقى قطعة من مسرحية كان قد كتبها لتوّه. فما أن وصل للفصل الثالث، وبدأ يوقظ في جمهوره تلك المشاعر المتعة جدا في الكوميديا، صدف وأن نزل فجأة حمام من السماء دفعه لفضّ الجمهور الذي طوّقه للاستماع إليه والقراءة التي لم يمض الكثير مُذ باشَرها. وهذا الذي حدث معي - إن كنت تتذكرون - في الآونة الأخيرة حين كنتُ أخاطبكم. وهكذا، وبطلبٍ من أشخاص عدّة، وعد فيلمون بإتمام القراءة في اليوم التالي دون مزيد من التأخير. وفي الغد، اجتمع حشد غفير لسماعه بحماس شديد، إذ جلس أمام الخشبة وبالقرب منها قدر الإمكان كلّ من استطاع سبيلا، وأطلق الوافدون المتأخرون لأصدقائهم إشارات حتى يجدوا لهم متّسعا للجلوس، واشتكى أولئك الذين جلسوا في آخر الصف من دفعهم عن مقاعدهم إلى الممر، حتى إنّ المسرح برمّته غصّ بجمهور عريض. بدأت همهمة الكلام تعلو: أولئك الذين لم يحضروا بالأمس راحوا يسألون عمّا تمّ إلقاؤه، وطفق الذين حضروا يتذاكرون ما سمعوه، وفي النهاية، حين أصبح الجميع على دراية بما سبق، بدأوا يتطلّعون لما سيلحق، وفي خضم ذلك مرّ اليوم دون أن يأتي فيلمون في الوقت المحدد. أنحى البعض باللائمة على الشاعر بسبب التأخير، في ما دافع كثرٌ عنه. ولكن، حين ظلوا زمنا ليس بالقليل ولا بالمعقول جاثمين هناك دون أن يظهر فيلمون، أُوفِد بعض الأفراد النشطين من الجمهور لإحضاره، لكنهم وجدوه يرقد على فراشه ميتا. كان قد لفظ للتوّ أنفاسه، واستلقى هناك على الأريكة متيبّسا وشاخصا في موقف شخصٍ غارقٍ في التأمل. كانت أصابعه لا تزال مبرومة حول كتابه، وكانت شفته لا تزال تسند الصفحة التي كان يقرأها. لكن الحياة فارقته: نسي كتابه، وما عاد يهمّه الآن أمر جمهوره. أولئك

الذين دخلوا الغرفة وقفوا لبرهة كأنما على رؤوسهم الطير، أُرتِج عليهم من هول الصدمة الفجاءة والجمال الأخاذ لموتته. عادوا بعدها وأطلعوا الشعب أنّ الشاعر فيلمون الذي كانوا في انتظاره كي ينهي هناك بالمسرح دراما من صُنع خياله قد اختتم العرض الوحيد الحقيقي، دراما الحياة في بيته الخاص؛ لقد قال لهذا العالم: "وداعا" و "لوّح"، ولِخلّانه: "انتحبوا ونوحوا". ثم استمروا قائلين: "إنّ وابل المطر بالأمس كان نذير دموعنا"، وها قد انتهت الملهاة بشعلة الجنازة دون أن تُختتم بشعلة الزواج. كلا، بما أنّ الشاعر قد وضع قناع هذه الحياة جانباً، فلنذهب مباشرة من المسرح لتشييع جنازته. لتكن عظامه هي التي نركمها الآن في وجداننا، ولنجعل لأشعاره وقتا آخر.

مع أني عرفت الحكاية التي أخبرتكم للتو عنها منذ أمد بعيد، إلا أنّ الخطر الذي مررت به خلال الأيام القليلة الماضية قد أعادها إلى ذهني. فعندما قاطع المطر قراءتي وذلك تتذكّرونه طبعا، أرجأتها إلى الغد بناء على طلبكم، صدف وأن حدث معي تقريبا مع حدث لفيلمون. لأني في ذلك اليوم لويتُ كاحلي بعنف في مدرسة المصارعة حتى كِدتُ أخلع المفصل عن ساقي. ومع ذلك فقد عاد إلى مَحْجِره، بالرغم من أنّ الساق بقيت مرضوضة بالوثء. هناك ما أخبركم به أيضا. من فرط الجهود التي بذلتها للحدّ من الخلع تصبّب جسدي عرقا وتملّكتني نوبة برد شديدة، وقد تبِع ذلك مغصٌ حاد في أحشائي لم يخفت حتى كاد عنفه يودي بحياتي. لو أنه استمر للحظة أخرى لكان عليّ أن أشق طريقي كفيلمون، للقبر لا لمحاضرتي، أين أختم قدري لا خطابي، فلا أختتم بذلك قصتي بل حياتي. وما أن مكّنتني الحرارة المعتدلة والخصائص الطبية المنعشة للحمامات الفارسية من استخدام قدمي - مع أنها لم تقدّم الشيء الكثير عدا أن كفلت حماسي في المثول أمامكم - قدِمتُ لأوفي بعهدي. وبمثل هذه الفسحة أغدقتم عليّ بالفضل فما كشفتم عني الخزعة فحسب بل جعلتموني فرِها بحق. ألم يكن حريًّا بي أن أحثّ الخطى علّني أمتنّ بدوري للشرف الذي منحتموني إياه دون طلبٍ. صحيح أنّ قرطاج مدينة لامعة لها من الشرف ما

يتوسّمه الفيلسوف حتى يُجزى بهذا الشكل، لكني رغبتُ في أن يكون للفضل الذي أسبغتموه عليّ قيمته الخالصة دون عيب يحطّ من قدره، فلا يفقد حَلَاه بالتماس أرفعه من طرفي، بكلمةٍ تجعلني مُغرِضا بالمرّة. لأن الذي يستعطي يدفع ثمنا غالي، وكم هو باهظ الثمن الذي يتلقاه من تجد الطلبية طريقها إليه، ولذا يجدر بالمرء حين يتعلق الأمر بضروريات الحياة أن يبتاعها بدلا من طلبها نَحْلى، وهذا المبدأ يعني في المقام الأول بالمسائل التي تتعلق بالشرف. وهو دون من يأتون بالطلب غير المرحّب به، لا يدين بنجاحه لأحدٍ عدا نفسه، أمّا من يتلقى مراتب الشرف دون فرضها عنوةً فهو مُلزمٌ تجاه المانحين لسببين: فقد نال، ما لم يسأل. ولذلك فإن الشُكران الذي أدين به لكم مضاعفٌ أو متعدّدٌ إلى حد ما، وستصدع به شفتاي في كل الأزمنة والأمكنة. لكن في هذه السانحة، سأرفع على العلن بيان عرفان من خطابٍ مكتوبٍ كنتُ قد دوّنته خصيصا على ضوء هذا التشريف، وبهذا النحو ولا شك، على الفيلسوف أن يردّ جميل مدينةٍ أقامت له تمثالا عاما. ومع ذلك فإن خطابي سيأخذ منحى آخر بعض الشيء كعلامة احترام للخلق الرفيع والمكانة السامية لأيميليانوس سترابو، وكلّي أملٌ في أن أصوغ خطابا يليق بما أجزتم لي تقديمه اليوم لينال قبولكم. إن سترابو[28] لعلّامة مكين، حتى إن مواهبه الخاصة لتُضفيه شرفا أكثر مما تفعل مرتبته النبيلة وولايته القنصلية. ومن كل النواحي فإن أيميليانوس سترابو لهو دون جميع الرجال، كما كان وسيظل، الأكثر شهرة بين كل الفاضلين، والأفضل بين كل المشاهير، والأوسع علما بين كلٍّ من المذكورين، وهل من ناحية آمل منها أن أشكر أو أحيي ذكرى الأفكار الجليلة التي تملكتك تجاهي؟ وكيف لي أن أحفل بما يليق بالشرف الذي حمّسك عليه لطفك؟ وكيف لخطابي أن يجزيك كفاية على المجد

---

[28] أيميليانوس سترابو. شغل منصب Consul Suffectus سنة 156م. تشير المصادر إلى فترة قنصلية سيريوس أوغيرينوس التي سبقته ما بين 155م إلى 156م والذي أصبح بروقنصلا في الفترة ما بين 169م و170م، ما يعني بشكل كبير أن بروقنصلية أيميليانوس سترابو أتت بالضرورة بعده لا قبله، أي في الفترة ما بين 170م - 171م.

-Prosopographia imp. Rom. part 3. nr. 674, p. 275.

-Waddington, Bullett. dell' Instit., 1869, p. 254.

الذي أضفيتهُ بتصرّفك؟ بحقّ السماء هذا يربك مخيّلتي. لكني سأسعى بجدّ وجديّة حتى أجد طريقة[29]:

"ما دامت الحياة تدبّ في هذه الأطراف
والذاكرة تعي وجودها".

وإنّ بلاغتي في الحين، ولا أُنكر، لا يكاد يُسمَع لها صوتٌ أمام السرور في قلبي. كما لا يمكنني أن أعبّر عن حَبَرتي، لأن روحي معلّقة ببهجتي، وهي توجبني بالفرح بدلا من الكلام. وهل باليد حيلة؟ بودّي أن أُعرب عن عرفاني، لكن الفرح الذي يغمرني لم يتح لي نفسا لأعرب عن شكري. وفي هذا لن يلومني أحدٌ، مهما بلغت به القسوة والصرامة، إن جعلني الشرف الذي حظيت به مُربَكا في أمري على أن أقرّ بالجميل. وهل في وسعه ذلك إن كان الإقرار بفضائلي، وعلى لسان رجل بمثل هذه المنزلة والدراية، قد طار بعقلي فأغشاني. فقد ألقاه في مجلس شيوخ قرطاج وهو جهاز لا يعادل فضله إلا تميّزه، والذي صدع بذلك كان على رأس القنصلية، وهو رجل كان يكفي المرء شرف معرفته. وكذلك فعل رجلٌ انبرى لأفاضل مواطني إفريقيه ليثني على شخصي عاطِرَ الثَّناء!

لقد بلغني أنه أرسل منذ يومين مكتوبا يسأل تخصيص مكان بارز لتمثالي، وفوق ذلك كلّه، تحدّث عن روابط الصداقة التي انبثقت تحت تلك الظروف المشرفة حين خدمنا سويا تحت راية الأدب ودرسنا على يد المعلمين أنفسهم، وَعدَّ جميع أمنيات النجاح التي قابلتُ بها تقدّمه في مسيرته الرسمية خطوة بخطوة. وقد حيّاني تذكّرهُ لي حين كنت في السابق زميله في الفصل، بل وبيّاني أن اعتبرَ رجلٌ بمثل هذه العظمة صداقتي كما لو كنت أضاهيه. حتى إنه ذهب أبعد من ذلك. فقد أورد أنّ أقواما ومدائن أقرّت على شرفي نُصبا، بل وغير ذلك من استحقاقات أخرى. وهل بقي ما

[29] الأبيات لفيرجيل، أنظر:

-Vergilius Maro, Aeneid. IV. 336.

يُضاف لمدح كهذا؟ وعلى لسان قنصل سابق؟ بالفعل، لقد أتى على ذكر الكهنوت الذي اضطلعت به، وكشف بأني حصّلتُ أعظم تشريف يمكن أن تمنحه قرطاج. لكن الآتي ذِكرهُ كان الثناء الأكبر والأعظم شأنا، إذ بعدما قدّم هذه الثروة من الشهادات الحفيّة عهد بي إلى عنايتكم بتوصيةٍ رفعها بنفسه. ثم وعد في النهاية، الرجل الذي يسعد كلُّ إقليمٍ في أرجاء البسيطة إقامة عربات مجرورة بأربعة أو ستة أحصنة على شرفه، أنه سيرفع تمثالا لي في قرطاج من خالص ماله. وهل بقي ما يعوز لئلا تقرّوا وترسّخوا مجدي وتنصّبوه على أعلى ذرى الشهرة؟ أنا أسألكم، ما الذي يعوز؟ أيميليانوس سترابو الذي شغل منصب القنصل، والذي من المقدر له كما نأمل جميعا وندعو أن يكون الوالي في القريب العاجل، يقترح قرارا يقضي بتشريفي بهذه التكريمات في مجلس شيوخ قرطاج. وقد صادقتم بالإجماع على هذا الاقتراح، والذي كان في نظركم ولا شك أكثر من مجرد قرار، بل تشريعا رسميا لقانون. كلا بل أكثر من ذلك. كل القرطاجيين المجتمعين في هذا المحفل المهيب كشفوا عن أتمّ الاستعداد لمنح أرضيّةٍ للتمثال، وهم بذلك، حسبما أخمّن، يبلغونك أنهم إن أجّلوا قرار إقامة تمثال آخر إلى اجتماع آخر لمجلس الشيوخ فإنما فعلوا ذلك رغبة في إظهار أقصى قدر من الإجلال والإكبار لقنصلهم الموقّر، فلا يبدون كما لو أنهم يحاكون إحسانه أكثر مما يحذون حذوه. وأعني بذلك أنهم ارتأوا تخصيص يومٍ بطوله لمسألة منحي التشريف العام الذي بتّوا مسبقا في أمره، أضف إلى أنّ هؤلاء الحكام الأجلاء، أعيان مدينتكم الوجهاء، قد تذكّروا أنّ المهمة التي أوكلتموها أنتم أهالي قرطاج إليهم تنسجم تماما مع رغباتهم. كل هذه التفاصيل وتريدني أن أتجاهلها وأصمت عنها! إنما ذلك لَكُفران بالنعمة. ولأني أبعد ما يكون عن كذلك، أقدّمُ شكري الخالص للمجلس بأكمله على كرمهم السخي. لم أمتنّ في حياتي لأمرٍ كما أنا الآن. فقد أقاموا الدنيا بالهتاف في ذلك المجلس تكريما لي، في الوقت الذي كان يكفيني شرفا مجرّد ذكر اسمي، وهكذا، واعذروا زهوي بنفسي، حقّقتُ إلى حد ما أمرا يصعبُ تحقيقه، بدا بالفعل ومن الطبيعي أن يتجاوز قدرتي. لقد كسبت محبة الشعب، وفضل مجلس الشيوخ، ورضا الحكّام وأسياد المدينة. وهل بقي شيءٌ من

تشريفٍ يعوز تمثالي عدا ثمن البرونز وخدمات الفنان؟ إنّ هذا لم يضنن به عليّ حتى في المدن الصغرى، حتى تضنّ به قرطاج. قرطاج التي حين يُصدر مجلس شيوخها ما يُصدر، وحتى عندما تكون الرهانات الأكبر على المحك، لا يولي أدنى اعتبار للتكلفة. لكني سأتحدث لاحقا عن هذا الأمر بشكل أوفى حين يدخل قراركم حيّز التنفيذ، وسأرفع امتناني بمزيد من الإسهاب على حفف تدشين تمثالي في خطاب مكتوب آخر، حتى أعرب عنه بصريح العبارة إليكم يا أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء، ولكم أيها المواطنون الفضلاء، ولكم أصدقائي الأعزاء. نعم، سأعهد بامتناني لصفحات كتاب مخلّدة، بحيث تجوب الدنى والعوالم في كل الأزمنة، مسجّلة للورى وعلى مرّ العصور تعابير ثنائي على فضلكم.


APVL
EIVS

17- مقطع في مديح سكيبيو أورفيتوس

إني أترك الساحة لأولئك الذين مَرَدوا على حشر أنفسهم في وقت فراغ البروقنصل طمعا في تسويق مواهبهم بلغو كلامهم، وفي تمجيد أنفسهم عبر التنعّم بما تُحدِثه بسمات مودّتك من أثرٍ، وكلا هذين القبيحين بعيد عني يا سكيبيو أورفيتوس[30]. لأني، وكما هو معروف عني، بلغتُ من جمّ اللطف والظرف ما يجعلني في غِنى عن مزيدٍ من الثناء. فضلا على أني، آثر التمتّع برفقتك على أن أتباهى بها، ومثلك أنا، أحرص على صداقتك دون أن أتبجّح بها، لأن الرغبة لا يمكن أن تكون إلا خالصة، وأما المباهاة فهي تأتي في الغالب مصطنعة. وعلى ضوء هذا انتهج على الدوام سبل التعفّف، فقد كان شغلي الشاغل هنا بإفريقيا وحين أتنقّل بين أصدقائك بروما أن أصنع اسما بخلُقي ودراساتي، وهذا الذي تشهد عليه أنت بنفسك، والذي انتهى بك إلى رغبةٍ في صحبتي لا تقل عن توقي لذلك. إنّ عدم تسامحك مع ندرة تواجد الصديق لإشارةٌ على أنك ترغب في حضوره الدائم، فما دام يبهجك كثرة تردّده عليك ويغضبك إمساك قدمه عنك، وما دمتَ ترحّب بمرافقته وتأسف لغيابه، فهذا ينمّ بشكل قاطع عن الحب، طالما من الجليّ أن يضفي بوجوده سرورا من يثير بغيابه شجونا. أما الصوت، إن شدّ عليه حبل الصمت مطولا، فلا نفع منه كحال المنخرين حين ينسدّان بنزلة برد تتملّك الرأس، والأذنين حين يصمّان بفعل القذارة، والعينين حين يعتّمان بسبب الساد. وهل لليدين ما تفعلانه إن غُلّتا؟ أو القدمين إن قُيّدتا؟ وهل للعقل الذي يحكمنا ويوجّهنا أن يفعل شيئا إن خار في النوم أو غار في الخمر أو هار تحت وطأة المرض؟ أبدا، فكما هو الحال مع السيف، يأخذ لمعانه بفعل استخدامه ودون ذلك يعلوه الصدأ، كذلك يتبدّد الصوت بطول خفوته إذا ما غُيّب

[30] سكيبيو أورفيتوس. بروقنصل إفريقيا في 163م- 164م. يشهد على تاريخ حكمه النقش الأثري في قوس النصر بطرابلس "أويا" الذي رفع على شرفه، وأسند لقب الشرف "ARMENIACUS " يعني "المنتصر في حرب أرمينيا" كتكريم للقياصرة الاثنين ماركوس أوريليوس ولوكيوس فيروس المذكورين في قوس النصر، وهذا ما يثبت أنه قد تم تشييده في أواخر سنة 163م أو بداية سنة 164م، وهي فترة بروقنصلية أورفيتوس.

-CIL., T. VIII, 24.

في غمد الصمت. لابد للإهمال أن يورث الكسل، وإنّ الكسل موجب للفساد. فإن لم يتمرّس ممثل الملهاة بشكل يومي فبالكاد ستكون لصوته رنّة وستعلو مخارجه جشّة، ولذلك يلطّف بحّته بالصوت الجهير والترديد المتكرر. ومع ذلك، فإنه ضرب من العبث والعمل غير المجدي أي يأمل المرء في تحسين الجودة الطبيعية للصوت البشري. هناك الكثير من الأصوات التي تتفوّق عليه: دويّ البوق يعلوه صخبا، وموسيقى القيثارة تفوقه تنوّعا، وعزف الناي يبعث على الانشراح أكثر، وفي نفخة المزمار متعة أكبر، كما أنّ إشارة البوق تبلغ الآذان قبل غيرها. هذا وإني أتحاشى ذِكر الأصوات الطبيعية للعديد من الحيوانات والتي تثير الإعجاب بفعل خصائصها، كما هو الحال مثلا مع الصوت العميق لخوار الثور، والعواء الحاد للذئب، والنهيم المغتمّ للفيل، والصهيل المفعم للحصان، والتغريد المصرصر للعصفور، والزئير الحانق للأسد. هذه ومعها صيحات الوحوش الأخرى، بصوتها الصدّاح أو الأجشّ، والتي يستثيرها جنون الغضب أو نشوة اللذة. بدلا من هذه الصيحات أعطت الآلهة للإنسان صوتا بنطاقٍ أضيق، حتى يُطرب الأذن أقل، ويستثير ملكة الفهم أكثر، ولذا يجدر تهذيبه من باب أولى باستخدامه أكثر فأكثر. فلا مكان شبيه بمحضر جمهور يتصدّره رجل عظيم، وفي وسط جمع غفير ومتميز من صفوة العلماء وهم يتقدمون الصفوف ليلقوا السمع بانتباه شديد. أنا عن نفسي، إن كان لي في العزف على القيثارة سحرٌ يذكرُ، فلن ألعب إلا أمام الجموع الغفيرة، لأن:

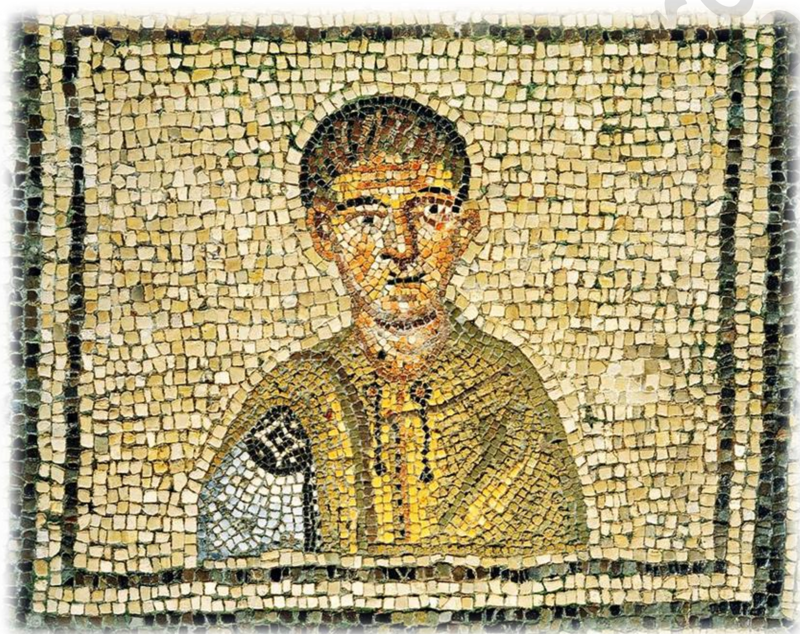
"في الخلوة، غنى أورفيوس للغابات، وأريون للأسماك"[31].

إن سلّمنا بصحة الأسطورة، فقد سيق أورفيوس إلى المنفى الموحش، وألقي أريون من على سفينته. أحدهما كان يهدئ الوحوش الضارية، والآخر يسحر الأليفة؛ كلا الموسيقيين كانا غير سعداء، كونهما جاهدا لا من أجل الشرف أو لخيارٍ اتخذوه بحريّة، بل لسلامتهما ولضرورة حتميّة. كنتُ لأُعجَب بهما أكثر لو كانوا يطربون البشر

[31] الأبيات لفيرجيل. أنظر:

-Vergilius Maro, Eclogue. VII. 56.

لا الوحوش، لأن في تلك العزلة كان الأمر يليق أكثر بالطيور: الشحرور والبلابل والبجع. فالشحرور يصفّر مثل صبي مبتهج في البراري النائية، والبلبل يردّد أغنيته بحيويّة الشبان في الأماكن المهجورة من إفريقيا، وتشدو البجعة بالموسيقى الغابرة من الأنهر السحيقة. أما من يؤلف أنشودة بما ينفع الصبية والشبان والعجزة فجدير به أن يلقيها بين الآلاف من الرجال، كما أفعل الآن وأنا أشدو بفضائل أورفيتوس. قد يكون الحال متأخرا، ربما، لكن المقصود بذلك ينعكس وبكل صدق، أنّ الأمر لا يتعلق بالمتعة بقدر ما عاد على الصبية والشبان وكبار السن في قرطاج من نفعٍ، لأن الجميع ينعم بلطف الأفضل بين كل الولاة: فقد طوّع رغباتهم وضبطها بتدابير لطيفة. جَدا بنعمة الوفرة على الصبيان، وبالمرح على الشبان، وعلى الشيوخ بالأمان. أما وقد بلغ بي الحديث ذِكر فضائلك يا سكيبيو، فإني أخشى سواء من تواضعك الكريم أو طبعي الخجول أن يطبقا لساني، لكن هذا لا يحول دون الإشارة إلى غيضٍ من فيضِ مناقبك والتي نعشقها فيك حقا. أيها المواطنون الذين أنقذهم، هللوا معي لها إن زكيتموها طبعا!



18- خطاب ألقي إلى القرطاجيين، أتى فيه على ذكر طاليس وبروتاغوراس بالصدفة

قد قدِمتم بهذا العدد الغفير لسماعي حتى إنكم لتشعرونني بواجب تهنئة قرطاج على وجود الكثير من أصفياء المعرفة ضمن مواطنيها قبل أن أسمح لنفسي بالحديث بعد إذنكم، أنا الفيلسوف المزعوم الذي يغامر بذلك على العلن. لأن الحشد الذي اجتمع تليق به مدينة بهذه العظمة، والمكان الذي اختير لخطابي جديرٌ بهذه الحظوة. فإنما نعتبر في المسرح لا رخام رصفاته، ولا خشبات المنصة، ولا أعمدة المقصورات. كلا، بل ولا حتى ارتفاع جملوناته، ولا زخرفة سقوفه المنحتّة، ولا اتّساع صفوف مقاعده؛ لا داعي لأن نستحضر في الأذهان أنّ هذا المكان في بعض الأحيان مسرح لحماقة التمثيل الساخر، وحوار الملهاة، والصخب الجهوري للمأساة، والتهريج الخطير للماشي على الحبل، وخفة يد البهلواني، وإيماءات الراقص، وكل الحيل الخاصة بفنونها والتي تُعرض أمام الناس من قبل فنانين آخرين. كل هذه الاعتبارات قد توضع جانبا، لأن الذي يهمّنا نحن هو كالآتي: ما يقوله الخطيب وما دفع الجمهور للحضور، تماما مثلما يسوق الشعراء في هذا المكان مسرح الأحداث إلى مدن أخرى عديدة. خذ على سبيل المثال الشاعر المأساوي الذي دفع ممثله للقول:

"ليبر، يا من استوى على هذه القمم المهيبة، من كيثايرون الشهيرة".

أو الشاعر الساخر الذي يقول:

"بلوتوس يسألك حيّزا صغيرا، داخل المحيط الفسيح لهذه الأسوار العتيقة، حتى يقدر دون عون معماري، أن ينقل أثينا العريقة"[32].

ومع ذلك فأنا أطلب الإذن منكم لنقل عرضي، ولكن ليس إلى أيّ مدينة قصيّة في ما وراء البحار، بل إلى مجلس الشيوخ أو المكتبة العامة بقرطاج. ولذلك أرجو منكم، إن كان شيء من أقوالي جدير بمجلس الشيوخ، أن تتصوروا أنفسكم وأنتم تستمعون

---

[32] أنظر:

-Plautus, Truculentus. Prologue 1-3.

إليّ داخل أسوار مجلس الشيوخ؛ وإن كانت كلماتي توحي بالمعرفة، فأنا أدعوكم لتتلقّوها كما لو كنتم تقرؤونها بالمكتبة العامة؟ ليتني أجد كلمات كافية حتى أوفي هذا الجمع حقّه ولا أرتبك حين يتطلّب الأمر أن أكون على قدر كبير من الفصاحة، ولو أنّ القول المأثور صحيح: لا تخصّ السماء أحدا ببركة خالصة لا تشوبها شائبة؛ حتى الفرح العارم يضمر بداخله مسحة حزنٍ، مزيجٌ من المرارة والشهد؛ إذ لا ورد بلا أشواك. وقد وقفتُ على حقيقة هذا الأمر في كثير من المرات، وما أنا عليه الآن أكثر مما كنتُ عليه يوما. فكلّما أدركتُ إلى أيّ مدى يمكنكم الذهاب في الإشادة بي، كلما كانت لكم عندي مهابة أكبر، وعقِل لساني عن الكلام أكثر فأكثر. كثيرا ما تحدّثت لجماهير غريبة وبمنتهى الطلاقة، أما الآن وأنا أتوجه بالكلام لذويّ أرتبك. من الطريف القول بأني أرتعب ممّا بيده أن يغريني، ويعوقني ما عليه أن يمضي بي قدما، ويكبحني ما يفترض به أن يجعلني جسورا، ولو أنّ الكثير يمنحني الشجاعة في محضركم. فقد توطّنتُ بمدينتكم التي كنت أعرفها وأنا صبي أشدّ المعرفة مذ أمضيتُ بها أيام دراستي؛ وتعرفون أرائي الفلسفية وصوتي ليس بالغريب عنكم، وقد قرأتم كتبي وزكّيتموها كلها؛ مسقط رأسي ممثل في مجلس إفريقيا أي في مجلسكم بالذات؛ أمضيتُ معكم صباي وكنتم أنتم أساتذتي؛ وهنا وجدت فلسفتي إلهامها الأول ولو أنّ أثينا العتيقة بلغت بها مبلغ النضج؛ وطيلة السنوات الستة الماضية كان صوتي وهو ينطق بكلٍّ من اللغتين مألوفا لأسماعكم؛ كلا، بل إنّ كتبي على ما هي عليه من شهرةٍ ما كان لها حقيقةً أن تحظى بمثل هذا الثناء لولا أن أسبغتم عليها بتزكيتكم. كلّ هذه المغريات بتنوّعها وعظيم شأنها، والتي تروقكم قدر ما تفعل بي، تحرجني وتخيفني إلى حدٍّ تثير فيكم متعة الاستماع إليّ. وإنه لهيّن عليّ أن أشدو بفضائلكم أمام مواطني مدن أخرى على أن أفعل ذلك أمامكم. يصحّ القول بأنّ بين الشخص وأهله يقف الحياء حجر عثرة، في حين أنه قد يصدع بالحق في محضر الغرباء بكل أريحية. ومع ذلك فأنا دوما وفي كل محضر أضعكم مقام آبائي وأساتذة

شبابي الأوائل، وأبذل ما بوسعي لأردّ جميلكم عليّ. لكن المكافأة التي أعرضها عليكم ليست كتلك التي ابتغاها السفسطائي بروتاغوراس[33] دون أن يحصل عليها، بل تلك التي نالها الحكيم طاليس دون أن يسعى إليها. ما الذي تريدونه؟ آه ! فهمت. سأروي لكم كلا القصتين.

كان بروتاغوراس سفسطائيا يضطلع في عدد هائل من المواضيع، وأحد أفضل الخطباء بين المؤسسين الأوائل لفن البلاغة، كما كان رفيقا ومعاصرا للفيزيائي ديمقريطس الذي استمدّ منه تعليمه. فحوى الحكاية أنّ بروتاغوراس أقام صفقة طائشة مع تلميذه يواثلوس، مُلزِمًا نفسه بتقديم مكافأة استثنائية شرط أن يُقدَّم المال إن رافع يواثلوس بنجاح في أول قضية له بالمحكمة. ولذلك استهلّ الشاب تعلّم كل الطرائق المعمول بها لكسب أصوات المحلفين، وكلّ مقالب محامي الخصوم، وجميع حيل الخطابة، وقد هان عليه ذلك لأنه كان نبِها في طبعه وفطِنا في فطرته. فما أن أحاط في قناعته بكل ما رغب في معرفته، طفق يُظهِر تردّدا في أداء دوره من الرهان؛ أعاق في البدء دعوات سيّده بالدفع متحجّجا بشتى الذرائع الذكيّة، وأبى لفترة طويلة من الزمن الترافع في المحكمة أو سداد الرهان المترتّب عليه، إلى أن استدعاه بروتاغوراس في النهاية إلى المحكمة، واستعرض الشروط التي بموجبها قبِله كتلميذ له، وراح يطرح الإشكالية التالية بالقول: إذا فزتُ، فعليك أن تدفع الرسوم، لأنه محكوم عليك بذلك. أما إذا فزتَ أنت، فلا يزال يتعيّن عليك الدفع وفقًا لشروط عقدك، كونك قد ربحتَ أول قضية رافعتَ من أجلها. وهذا يعني أنك إذا كنتَ أنت الفائز، تخسر بموجب شروط الرهان، وفي حال ما انهزمت، تخسر بموجب قرار المحكمة. ما الذي بوسعك فعله؟ اعتقدت هيئة المحلفين أن الحبكة ضربٌ من الدهاء وقطعا لا يمكن دحضها، لكن يواثلوس أظهر نفسه تلميذا مثاليا

[33] بروتاغوراس. ولد في أبديرا سنة 485 ق.م وتوفي سنة 415 ق.م. يرجّح أنه أول من لقّب نفسه بالسفسطائي، كما أن مسيرته أصبحت مرجعية لهذه المهنة.

-A. A. Long, The Cambridge Companion to Early Greek Philosophy. Cambridge University Press, 1999. p. 26.

لمعلّم داهية بأن قلب المقلب على صاحبه، إذ ردّ بالقول: "في كل الأحوال لن أدين لك بشيء، فإما أفوز وأُبرّأ من المحكمة، أو أخسر وأُعتَق من الرهان الذي ينصّ بأني لن أدين لك بالمال إن خسرتُ قضيتي الأولى بالمحكمة. وهذه هي قضيتي الأولى! هكذا أخرج في كل من الحالتين كالشعرة من العجين: أخسر، فأُنقذ بموجب الرهان؛ أفوز، فأكسبُ بحكم المحكمة. ما رأيكم؟ ألا تتذكّرون، وأنتم تلاقون هذه الحجج السفسطائية، عُلّيق الشجر وكيف تتشبّثُ فروعه بفعل الرياح؟ حين يغرس أحدها بالآخر أشواك بنفس الطول وكلها تنفذُ إلى عمق مساوٍ كما لو كان يبادل الجرح بالجرح عينه. فلندع حِسبة بروتاغوراس للبواقع والطماعين، فهي تتضمّن الكثير من العوائق الشائكة، وإنّ خير الجزاء وأفضله ذلك الذي اقترحه طاليس[34] كما يقولون.

كان طاليس المالطي ببساطة صاحب ذِكرٍ طنّان بين الحكماء السبعة المشاهير، إذ كان أول من استبان علم الهندسة بين الإغريق، وباحثا محكّما في قوانين الطبيعة، وماهرا للغاية في مراقبة النجوم. وقد كشف بعون خيوط مجهرية عن حقائق كونية: دورة السنين، وهبوب الرياح، وشرود النجوم، وأعجوبة الرعد المزمجر، ومدار البروج المائل، ودورة الشمس السنوية، سطوع القمر في مستهلّ دورته، ومحاقه في نهايتها، وظل خسوفه. هذه كلّها استنبط قوانينها. وحتى حين تقدّم به عداد السنين طوّر بإلهام إلهي نظرية تتعلق بفترة دوران الشمس في المدار الذي يطوف حوله بكل جلالته. ويمكنني القول إنني لم أدرس هذه النظرية من الكتب فحسب، بل برهنت على صحّتها بالتجربة.

يقال أنّ طاليس لقّن هذه التجربة بمجرّد اكتشافها إلى ماندراتيوس البيريني، وهذا الأخير، من شدة افتتانه بغرابة وجِدَّة هذه المعرفة التي اكتسبها حديثا، دعا طاليس

[34] طاليس الملطي. ولد في 625 ق.م وتوفي سنة 547 ق.م عن عمر يقارب 78 سنة تقريبا. يأتي على رأس عظماء الرياضيات والفلاسفة الفيزيائيين في بلاد الإغريق وأحد الحكماء السبعة في تاريخ الانسانية. اشتهر بدراسته للفلسفة الطبيعية، واستنباطه لقوانين الرياضيات الدقيقة، وكذلك مساهمته الكبيرة في علم الفلك.

-Michael Bradley, The Birth of Mathematics, Updated Edition: Ancient Times to 1300. Infobase Publishing, 2019. pp. 3-13.

لاختيار أيّ مكافأة يبتغيها لقاء هذه المعرفة الثمينة. ردّ طاليس الحكيم بالقول: "تكفيني كمكافأة، أن تمتنع عن الادعاء بأن النظرية التي علمتك إياها تخصّك كلما مرّرتها لغيرك، وأن تنسب لي ذلك دون غيري باعتباري مكتشفا لهذا القانون الجديد". كان ذلك جزاء في منتهى الرِفعة، يليق برجل عظيم الشأن، ولا تطوله يد الزمان. ولحد هذا اليوم بالذات يوفى طاليس هذا الجزاء منا جميعا، وكذلك سنفعل إلى الأزل، نحن الذين وقفنا على حقيقة اكتشافاته فيما يتعلّق بالسماوات. وإني أصرف لكم يا أهل قرطاج من هذا الجزاء في كل الأرجاء لقاء التعليم الذي مكّنتني منه قرطاج صبيا، وأباهي بنفسي في كل مكان على حضانة مدينتكم لي، أينما كنتُ وبكل طريقة ممكنة أشدو بفضائلكم، وأكرم بحماس معرفتكم، وأعظّم شأن ثروتكم، وأوقّر بالعبادة آلهتكم. وهكذا أستهلّ كلامي الآن بالحديث عن الإله اسكليبيوس، وهل لي أن أشدّ أسماعكم بما أكثر من هذا الشأن يُمنا وبركة؟ وهو يكرم قلعة مدينتنا قرطاج بِحِمى حضرته التي لا ريب فيها. شاهدوا! سأنشد لكم ترنيمة باللاتينية واليونانية كنتُ قد ألّفتها على شرفه ونذرتها له منذ زمن بعيد. فمن المعروف إني كثير التردّد على شعائره، وعبادتي له ليست بالشيء الجديد، وقد تلقى بالقبول كهنوتي له، كما أنني أعربت عن تعظيمي لشأنه بالنثر والشعر. وكذلك أفعل الآن. سأرتّل ترنيمة لمجده باليونانية واللاتينية كنتُ قد استهللتها بحوارٍ بكلتا اللغتين يجمع بين سابيديوس سيفيروس ويوليوس بيرسيوس. كل واحد منهما يرتبط بالآخر بحق، كما يرتبطان بكم وبالصالح العام بِعُرى المحبة الوثيقة، وتجمعهما على حدٍّ سواء ميزة التعلّم والبلاغة والنزعة إلى الخير. من الصعب أن نحدّد إن كانا يصنعان الاستثناء بفضل اللطف البالغ أو النشاط الدؤوب، أو من سيرتهما النظيفة في الحياة. هما ينسجمان مع بعضهما البعض في تناغم تام، وما يفرق بينهما إلا جزئية واحدة يشتعل فيها التنافس بينهما، وتحديدا، يتنازعان أيّهما أكبر حبا لقرطاج، وهما يتساجلان في ذلك بكل ما أوتيا من طاقة وحيوية، فلا يغلبنّ أحدهما الآخر في المنافسة. وكوني أظنكم ستسرّون للغاية بالاستماع لحديثهم، وأنّ مدار الحديث هذا يوائم قدراتي وسيكون بشكل أو بآخر تقدمة أولى للإله، أبدأ في صدر كتابي بجعل

زميلٍ في الدراسة من أثينا يسأل بيرسيوس باليونانية عن فحوى البيان الذي ألقيتُه بنفسي في اليوم السابق بمعبد اسكليبيوس. بتقدّم الحوار أعرّف سيفيروس بجماعته، فقرته مكتوبة بلغة روما، أما بيرسيوس ورغم إجادته للاتينية إلا أنه سيخاطبكم بالأتيكية.



19- قصة الطبيب اسكليبياديس

كان اسكليبياديس الشهير[35]، والذي صنّف ضمن أعظم الأطباء إلى جانب ابقراط الذي كان يصنع الاستثناء حقا، أول من استخلص نفع النبيذ في العلاج. يقتضي الأمر، على كل حال، أن يُقدَّم في وقتٍ بعينه، وقد أبان عن فائق المهارة في تحديده للحظة المناسبة عبر إمعانه النظر في أدنى إشارات الخلل أو التسارع المضطرب في ما يتعلق بالنبض. حدث ذات مرّة أن رأى بالضاحية وهو عائد من ضيعته بالريف إلى البلدة موكبا جنائزيا مهيبا، وقد أحاط جمع غفير بالنعش ليقفوا وقفة الوداع الأخير والكلّ ينغمس في حزن عميق ويتوشّح بكسوة رثّة بالية. سأل عن هوية الشخص الذي هُم بصدد دفنه لكن دون ردٍّ من أحد، ولذلك اقترب مذعنا لفضوله وليرى من قد يكونه الميت، أو ربما، يرجو الوقوف على شيء يصبّ في صميم مهنته وشؤونها. أيّا كان ما حدث، فقد انتشل الرجل من بين فكي الموت وهو يرقد هناك على شفا القبر. كانت أطراف الرجل المسكين مغطاة بالحناط وفمه محشو بالطيب الفوّاح، وقد مُسح بالزيت في انتظار الدفع به إلى المحرقة. لكن اسكليبياديس أنعم فيه النظر ووضع نصب عينيه بعض الأمارات، ثم تحسّس جسده مرات ومرات، فتأكّد من أنه ما زال على قيد الحياة مع أنّ ذلك بالكاد يمكن رصده. وعلى الفور صاح فيهم: "إنه حي يرزق ! القوا مشاعلكم وابعدوا نيرانكم عن المحرقة، واسحبوا وليمة العزاء واجعلوها بمجلسه في البيت". وفي ما كان هو يتحدث ارتفعت همهمةٌ؛ أشار البعض بوجوب الأخذ بكلام النطاسي، في ما تهكّم آخرون من مهارات الطبيب. وبالرغم من المعارضة التي لقيها حتى من أقربائه، والتي تُعزى ربما لجعلهم ملكيّة الراحل تحت تصرفهم بالفعل أو لأنهم لم يصدّقوا كلامه بعد، أقنعهم اسكليبياديس بإرجاء

---

[35] اسكليبياديس. ولد سنة 124 ق.م في بروزا ببيثينيا. انتقل لروما وأسس مدرسة شهيرة هناك، وقد كان من بين تلامذته أرتوريوس وثيميسون. لاقى نجاحا باهرا في فن المداواة واعتمدت أساليبه من بعده لفترة طويلة من الزمن. وقد لقي شهرة بالغة بفضل طرقه التي تعتمد على الحمية الغذائية، التمارين، التدليك، وجرعات الخمر. وقد مات في سن متقدمة للغاية.

-Joseph Thomas, The Universal Dictionary of Biography and Mythology. Cosimo, Incorporated, 2013. p. 188.

الدفن برهةً من الزمن. وبعدما خلّصه من يد الحانوتيّ، عاد بالرجل للبيت كما لو كان ذلك من فوهة الجحيم، وعلى الفور أحيا الروح بداخله، وبعونٍ من بعض العقاقير أعاد تلك الحياة التي كانت لا تزال متخفّية في مكامن الجسد الغامضة.



20- في مدح مواهبه

هناك قول معروف لرجل حكيم عن لذائذ المائدة مفاده أنّ 'القدح الأول يروي الغليل، والثاني يثير الجذل؛ والثالث للشهوة قنديل، والرابع يطير العقل[36]. لكن العكس صحيح إن نهلنا من ينبوع الملهمات. إذ كلما زاد عدد الأقداح التي تشربها، وكلما ازداد تركيز نُغبتها، كان أفضل لخير نفسك. القدح الأول يمنحك إياه المعلّم الذي يعلّمك القراءة والكتابة وهو يخلّصك من الجهل، القدح الثاني يمدّك إياه معلّم الأدب وهو يزوّدك بالمعرفة، الثالث يسلّحك ببلاغة الخطباء، ومن هذه الأقداح الثلاثة ينهل معظم الرجال. ومع ذلك تعبّبتُ من أقداح أخرى بأثينا: جرعة الشعر الإبداعية، ورشفة الهندسة الصافية، وحسوة الموسيقى الحلوة، وشربة الجدل الصارمة، ورحيق كل الفلسفة، مما لا يتاح لأي رجل أن يتروى كفاية. لقد خطّ أمبادوقليس أشعارا[37]، وأفلاطون حوارات، وسقراط أناشيدا، وإبيكارموس طربا[38]، واكزونوفون سِيرا، وزينوقراط هجاء[39]. أما صديقكم أبوليوس فهو يرعى كل هذه الفروع من الفنون مجتمعة ويتعبّد كل ربات الإلهام بنفس الهمّة. وأنا أقرّ بأن

---

[36] وفقا لديوجنس، صاحب هذا القول المأثور هو الفيلسوف السيكيثي آناكارسيس.

-Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers. 1. 103 .

[37] أمبادوقليس. فيلسوف إغريقي من أتباع فيثاغورس، ولد حوالي 484 قبل الميلاد بأجريجنتوم في صقلية. كتب قصيدة من 3000 سطر بعنوان 'التطهيرات' καθαρμοί. وصفه أرسطو بمخترع فن الخطابة وأنه من مدرسة هوميروس، قوي في الإلقاء. يؤكد ساتيروس أنه كان خطيبا وطبيبا، وأن الفيلسوف غورغياس الليونتيومي كان تلميذه، كما يروي ساتيروس نقلا عن غورغياس أنه كان شاهدا على قيام أمبادوقليس بمآثر سحرية. يؤكد هيراكليدس وأرسطو أنه توفي عن عمر 60 سنة.

-Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers. 8. 2.

[38] إبيكارموس. ولد سنة 540 ق.م في جزيرة كوس. فيلسوف إغريقي فيثاغورسي. ابن إيلوثالس الطبيب الشهير، وهي مهنة مارسها إبيكارموس وأخوه لفترة من الزمن. تنقّل به والده في سن 3 أشهر إلى ميغارا في صقلية أين تابع دراسته، وظل بها إلى أن دمّرها طاغية سرقوسة جيلون سنة 484 ق.م. بعد تدمير ميغارا انتقل إلى سرقوسة التي ظل بها طيلة حياته. وهناك عاصر كوكبة من أشهر الكتاب في زمنه ايسخيلوس، بيندار، سيموندس وغيرهم. توفي سنة 443 ق.م عن عمر يقارب 97 سنة، ورفعت سرقوسة تمثالا على شرفه.

- Abraham Mills, the Poets and the Poetry of the Ancient Greeks: With an Historical Introduction, and a Brief View of Grecian Philosophers, Orators, and Historians. Phillips & Sampson Publisher, 1854. pp. 330-332.

[39] فضلا عن زينوقراط الخلقدوني تلميذ أفلاطون، يذكر ديوجنس 5 كتاب بهذا الاسم، ولا واحد منهم بهذه الأهمية. قد يكون ربما كزينوفانيس، مؤسس المدرسة الايلية، هو المعني بقول أبوليوس، باعتبار أنه كتب في الهجاء Silli حسب ديوجنس.

-Diogenes Laertius, Lives of Eminent Philosophers. 4. 2.

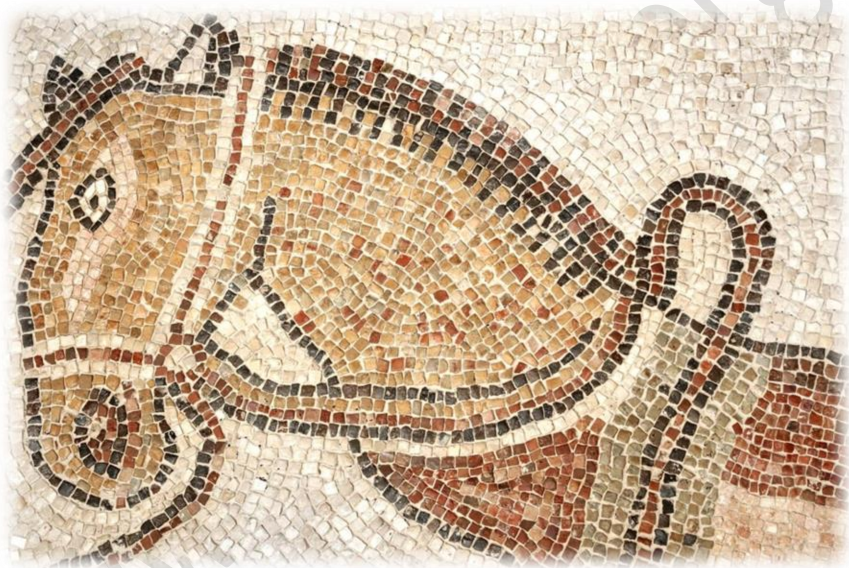
حماسه يفوق مقدرته بعض الشيء، ولعلّ ذلك ما يجعله جديرا بالثناء أكثر. فكما هو الحال في الاستحقاقات الكبرى فإن الجهد هو الذي يُجزى بالثناء لأن النجاح في النهاية مسألة حظ. وعلى سبيل الإيضاح أذكّركم بأن القانون يدين تدبير الجريمة وإن لم ينفذ المجرم غرضه على الإطلاق؛ قد تكون اليد نظيفة، لكن هناك دما على الروح، وفي ذلك كفاية. إذن، لكي تحقّ سخط القانون يكفي أن تعتزم القيام بما يستوجب العقاب، ولكي تنال الثناء يكفيك أن تعزم القيام بما يوجب رِفعة المنزلة؛ وهل من ادعاء ذي شأن وطيد الأساس قد يحظى به المرء ويفوق في كُنهه تعظيم قرطاج؟ إنكم - مواطنوها - لتبدون للمرء أهل علم: صبيتكم تتلقّن، وشبيبتكم تتألّق، ومشيختكم تُلقّن كل شكل من أشكال المعرفة. قرطاج هي المرشدة الروحية لمقاطعتنا؛ قرطاج هي الملهمة السماوية لإفريقيا؛ قرطاج هي المورد الذي يتلقى منه العالم الروماني برمّته نفحات الإلهام.



21- اعتذارعن التأخربسبب التزامات اجتماعية

لئن تملّكنا التسرّع في بعض الأحيان فإن العقبات التي تبطئ تقدمنا قد تعود علينا بمثل هذه الميزة: بأن نسعد كذلك بشيء يعيقنا عن هدفنا. خذ مثلا حالة الأشخاص الذين يضطرون للسفر على جناح السرعة، إنهم ليؤثرون السرج ومخاطره على مقعد في العربة بسبب القلاقل التي تثيرها أمتعتهم، وثقل المركبة والتثاقل في التقدّم ووعورة المسلك، ناهيك عن الجلامد التي ترصّع المسار وجذوع الأشجار المتساقطة على الطريق، والأنهر التي تقطع الصعيد ومنحدرات الجبال الحادة. ولذا، فإن على الذين يبتغون تفادي المعيقات على تعدادها أن ينتقوا جوادا له ما له في التحمل والثبات والسرعة، أي جوادا ركوبا حثيثا، كحال الجواد الذي وصفه لوكيليوس بأنه: "يتخطى السهل والتلّ بخطوة لا غير".

ومع ذلك، لو أنّ هذا الجواد يحملهم على أجنحة سرعته وحدث أن صادفوا شخصا عظيم الشأن، طيّب الأرومة، قويم الرأي، متطيّر الشهرة، فأيًا كان ما يدفعهم للاستعجال فهم يكبحون سرعتهم ليوفّوه وقارا. فيبطؤون من وتيرتهم ويكبحون جماح خيولهم وعلى الفور يترجّلون أرضا، يمررون ليسراهم السوط الذي يحثون به جيادهم وبيمناهم الطليقة يتقرّبون للرجل العظيم ليحيّوه قِبَلا. فإن خطر له أن يأخذ من الوقت نصيبا ليطرح عليهم بعض الأسئلة، لسايروه لبرهة وتحدثوا إليه. بل إنهم ليتعنّون بفرح وسرور أيّ قدر من التأخير في أداء الواجب الذي يدينون به نحوه.



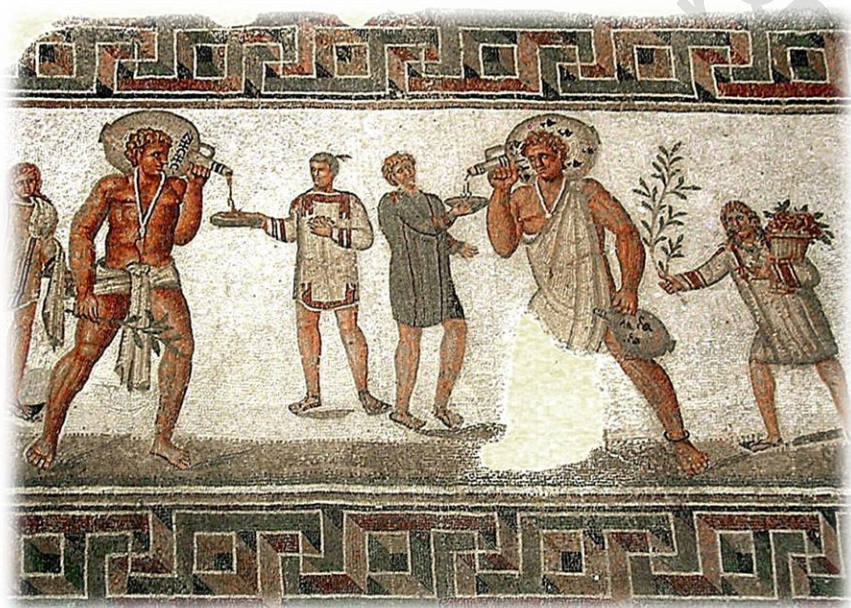
22- عن فضائل كراتس

كان شأن كراتس، تلميذ ديوجنس الشهير، معظّما في أثينا من قبل رجال عصره كما لو كان إلها من آلهة البيوت. فما كان بابٌ من الأبواب يصدّه، وما كان ربّ من أرباب البيوت يخفي شيئا عن كراتس أو اعتبره دخيلا بشكل من الأشكال. لقد كان موضع ترحيب على الدوام؛ ولم يسبق وأن حدث خصام أو مقاضاة بين الفرقاء إلا وجعلوه وسطا بينهم وكانت كلمته هي العليا. يروي الشعراء أنّ هرقل القديم أخضع بسطوته أسطورة الضواري، من جنس الحيوان والبشر، وقام بتخليص العالم منها. وكذلك فعل فيلسوفنا الذي كان هرقل بحقّ في إخماد الغضب والحسد والجشع والشهوة، وباقي الخطايا الشنيعة التي تكتنف روح الانسان. لقد دحر هذه الآفات كلها من عقولهم، وطهّر المنازل منها، وروّض الرذيلة ذاتها. كلا، بل هو أيضا مضى نصف عارٍ وكان معروفا بالعصا التي كان يحملها؛ بل إنه كذلك ينحدر من طيبة التي أنجبت هرقل على حدّ زعم الناس. وحتى قبل أن يصبح كراتس الصفيَّ العذريّ، كان يعدّ واحدا من خواص القوم في طيبة. كانت عائلته نبيلة، ومنشآته عديدة، وسقيفة منزله بهيّة فسيحة. كانت أراضيه خصبة وملابسه فاخرة. لكن في ما بعد، لما وقف رأيه على أنّ الثروة التي آلت إليه لم تكن تحمل أية ضمانة يمكنه أن يستند عليها مثل العصا في دروب الحياة، بل كانت كلها سريعة الزوال فانية، وأنّ كل الثروة في هذا العالم لم يكن ليُتَّكل عليها في حياة شريفة ...



23- عن عدم الوثوق بالغنى

تخيّلوا بعض السفن الجيدة، مصنوعة بأيدٍ ماهرة، محكمة البناء من الداخل وبهيّة الزينة من الخارج، بدفّةٍ مِطواعة، وحبال مشدودة، وصارية مرفوعة، وأسطح متألقة وشراع براقة. هي، بعبارة، مجهزة بكل العدّة التي تستجيب لغاية العمل أو متعة النظر. تخيّلوا هذا كلّه، وتدبّروا مصير السفينة إبّان العاصفة ودون ربّان ضليع، كم يهون على العمق أن يبتلعها وكيف للشعاب المرجانية أن تقطّعها إلى أشلاء بالرغم من كل معدّاتها الجيدة. وبالمثل، حين يدخل الأطباء بيت شخصٍ مريضٍ لعيادته، لا أحد منهم يدعو المريض للغبطة بسبب الشرفات الرائعة التي يرونها تزيّن البيت، أو الأسقف المزخرفة والمطلية جميعها بالذهب، أو جموع الصبية والشبان الأبهياء الذين يصطفون حول الأريكة في غرفته؛ بل بجوار الشخص يتوسّد الطبيب طرف السرير، فيأخذ بيده ويستشعرها ويتحسّس نبض القلب وخفقانه. فإن أفضى إلى خلل أو اضطراب ما، فهو يخبر مريضه بأنّ حالته حرجة. هكذا يؤمر صاحبنا الثري بالصوم، وفي ذلك اليوم ووسط المخزون الوافر ببيته لا يلمس حتى قطعة خبز: وفي غضون ذلك ينعم كلّ رقيقه بالطعام فكِهين، غير ابهين بشأن عبوديتهم.



24- إبتداه

تنادون بكلمةٍ على البديه! انصتوا إذن. لقد سمعتموني أتحدث محضّرا ما أقول، والآن اسمعوني ارتجل قولا. أظنني لا أخاطر بالكثير وأنا أحاول الحديث دون تدبير مسبق في ضوء القبول الاستثنائي الذي عادت به جملة خطاباتي عليّ، ولكوني بذلت جهود مضنية في إرضائكم، لا أخشى مغبّة الخوض في سفاسف الأمور أمامكم. وحتى تروني بالمطلق في كل منظور، فلتختبروني في ما يدعوه لوكيليوس:

"فنّ الكلام المرتجل الذي لا يُقنَّنُ".

وانظروا إن كانت لديّ في ضيق الوقت نفس المهارة التي أنا عليها بعد الإعداد. طبعا إن كان من بينكم حقّا من لم يسبق وأن سمع الدعابات التي تفرض نفسها في خضم اللحظة، فسيسمعها بمثل الدقة النقدية التي أعتمدها في تكوينها، وبما تفوق في تهذيبها -كما آملُ- ما أستشعره آناء إلقائها. ذلك لأن القضاة ذوي الرأي الحصيف يُحكّمون الأعمال التامة إلى معايير صارمة، ويلين جانبهم أكثر للمرتجلة منها. ثم إنكم تزنون وتفحصون كل ما هو مكتوب بالفعل، أما في حالة الكلام على البديهة فإن التغاضي يسير هو والنقد جنبا إلى جنب، وكل الصواب في ذلك. فما نقرأه من مكتوب يظلّ كما هو حين تدوينه، ولو أنكم لا تقولون شيئا، لكن هذه الكلمات التي عليّ التلفّظ بها الآن والمخاض الذي سيفضي بي وبعونكم إلى ولادتها ستكون على مقاسكم بالتمام والكمال، وهكذا أرضيكم أكثر كلما غيّرت من أسلوبي ليناسب ذوقكم. وإني لأراكم تصغون إليّ بطيب خاطر، ولكم من هذه اللحظة أن تلفّوا أشرعتي أو تطلقوها، فلا تُعلّق مرخية متهدّلة، أو مثنيّة مطويّة.

سآخذُ بقول أرستبوس؛ أرستبوس الذي أسّس المدرسة القورينية للفلسفة وأحد أتباع سقراط، وهو أمرٌ كان يعتبره شرفا كبيرا للاثنين معا. سأله أحد الطغاة عن الفائدة التي حصّلها من دراسته الطويلة والمكرّسة للفلسفة. أجاب أرستبوس: "لقد أمدّتني بالقوة لأناقش أيّ امرئٍ دون خوف أو وجل".

لقد باشرت خطابي بشيء من التثاقل في التعبير بسبب الموضوع الذي باغتني، إذ كان الحال كما لو كنتُ أشيّد جدارا مهلهلا يرضي المرء أن يكدّس فيه الدبش كيفما شاء دون ملء تجاويفه بالردم، أو تسوية الواجهة، أو بسط صفوفه بخيط البناء. فلا أنا أجلب في بنائي لهذا الخطاب حجارةً من مقلعي مكعّبة القصّ ومسطّحة الأوجه، وبحواف مبتورة بحذر وميزان فتنزلق الأظافر عليها بمنتهى اللطف. أبدا! بل واجب عليّ في كل نقطة أن أتعامل من المواد بالتي تكون خشنة وغير مسوّاة أو ملساء صقيلة؛ أو مثلومة الحواف أو ناتئة ذات زوايا، أو مستديرة مدحرجة. لن يكون هناك تصويب بالمسطرة فلا قياس أو نسبة، ولا حتى مراعاة للشاقول. لأنّ في استحداث شيء وليد اللحظة يشقّ على المرء أن يُرفِق ذلك بالعناية الفائقة، إذ لا يوجد شيء في الوجود قد يُجزى بالثناء في الحرص عليه، وبالتوازي، على التعجّل فيه!!!



25- حكاية الثعلب والغراب

قد أذعنتُ لرغبة البعض ممن ترجاني للتوّ أن أرتجل في الكلام. لكني -بحقّ هرقل- أخشى على نفسي من المصير الذي لقيه الغراب في حكاية عيسوب: أعني، في غمرة السعي لتضمين المجد الجديد هذا، أفقد القليل الذي ضمّنته بالفعل. تسألونني: أيُّ حكايةٍ هذه؟ سأنقلب للحظة وبكل سرور إلى حكواتي. رأى غراب وثعلب لقمة من الطعام في الوقت ذاته فسارعوا للحصول عليها. لقد كانا في الطمع سيّان، لكن في السرعة يتباينان. انطلق الثعلبان يركض، لكن الغراب أقلع يطير. وكانت نتيجة ذلك أن فاق الطائرُ ذات الأربع في السرعة، إذ مدّ جناحيه تفترشُ الريح، ليسبقه مُخلِّفا إياه وراءه. بعدها، طار الغراب فرحا بالنصر في سباق الغنيمة إلى شجرة بلوط بالقربِ وحطّ بأعلى فرعٍ بعيدَ المنال. لم يكن بوسع الثعلب رمي حجر، فرمى حيلةً وجدت طريقها إليه. أتاه أسفل الشجرة وتلبّث هناك، ورأى اللصّ فوقه مبتهجا بغنيمته أعلاه، فانطلق يشدوه بكلمات ماكرة: "كم أنا في غاية الحمق لأنافس طائر أبولو! إنّ قوامه مصقول بعناية، فلا هو بالضئيل على اللزوم ولا بالضخم الكبير، بل بالحجم الذي تمليه الحاجة والبهاء؛ ريشه ناعم، وطَرفُ رأسه مدبّبٌ، ومنقاره شديد. كلا، بل إنّ له أجنحةً يطارد بها، وأعين ثاقبة يتعقّبُ بها، وبراثن يتلقّف بها غنيمته. وما عساني أقول في لونه؟ هو ذو صرعين متساميين، سواد القار وبياض الثلج، وهما اللونان اللذان يميزان الليل والنهار. وقد منح أبولو هذين اللونين للطيور التي يحبّها، الأبيض للبجع والأسود للغراب، فلو أنه وهب الأخير مثل صوت البجع الآسر، لما عاش هذا الطائر الذي يتسيّد كل الطيور في الأجواء أبكما كما هو الآن؛ وحتى في حظوة إله البلاغة، يبقى أخرسا دون لسان". لمّا سمع الغراب الأمر وهو الذي يملك جلّ الصفات إلا هذه بالذات، تملّكته الرغبة في الصياح بأعلى ما يمكن من صوتٍ بحيث لا يترك للبجع أدنى فرصة في هذا الصدد، فأقدم على فتح فمه قدر ما في وسعه ناسيا القضمة التي يقبض عليها بمنقاره، ليخسر بنعيقه ما عادت به أجنحته عليه، ويستعيد الثعلب بمكره ما أفقدته إياه قوائمه.

فلنلخص هذه الحكاية بأقل قدر ممكن من الكلمات. لكي يثبت الغراب قدرته على الغناء، ويضع حدا لزعم الثعلب بأنّ فقدان الصوت هو العيب الوحيد في هذا الطائر البديع، أطلق فاه بالزعيب، ليسلّم الغنيمة التي كان يقبض عليه بمنقاره إلى العدو الذي أوقعه في شراكه.



26- انتقال من اليونانية إلى اللاتينية

لقد أدركتُ من زمن طويل مقصود عروضكم، والتي تدعوني تحديدا، لأتعامل مع بقية موضوعاتي باللغة اللاتينية. إني أذكر البدايات الأولى حين كنتم منقسمين في الرأي، وعدتُ كلا من الطرفين سواء من ألح على اليونانية أو من تشبّث باللاتينية، ألا يمضي دون سماع اللغة التي أحبّها. فإن طاب لكم الأمر فلنعتبر أن خطابي باليونانية العتيقة قد طال كفاية، وأنّ أوان الهجرة من أرض اليونان لبلاد اللاتين قد حان. إنّا الآن في منتصف تحقيقنا تقريباً، وأرى تقديرا أنّ النصف الثاني لا يخضع للأول الذي ألقيتهُ باليونانية. وإنها [اللاتينية] من السداد في الحجة بمثل ما هي مثقلة بالحكمة، ومن الثراء في زخرفها بمثل ما هي بديعة الأسلوب.



فهرس